حسن موسى الصفار

التسامح وثقافة الإختلاف

رؤى في بناء المجتمع وتنمية العلاقات

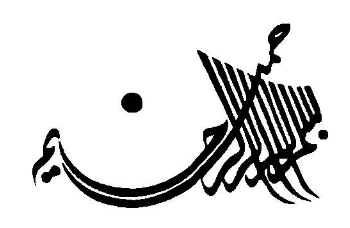
دار المحجة البيضاء
بيروت - لبنان

دار الواحة
بيروت - لبنان



التسامح وثقافة الاختلاف

رؤى في بناء المجتمع وتنمية العلاقات





الكتاب

التسامح وثقافة الاختلاف

تأليف

حسن موسى الصفار

الطبعة

الأولى: ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م
عدد الصفحات: ٢٤٠
القياس: ١٧×٢٤

الناشران

دار المحجة البيضاء
بيروت ـ لبنان
ص. ب ١٤/٥٤٧٩
حارة حريك ـ شارع الشيخ راغب حرب ـ قرب نادي السلطان
هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧

دار الواحة للطباعة والنشر
بيروت ـ لبنان ـ شارع الحمراء
ص.ب ١١٣/٥٢٢٧
هاتف ٠٣/٩١٩٥٥٢

التسامح وثقافة الاختلاف

رؤى في بناء المجتمع وتنمية العلاقات



دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - حارة حريك - ص.ب : ١٤/٥٤٧٩
ت : ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس : ٠١/٥٥٢٨٤٧

"الحمد لله رب العالمين اللهم صل على محمد
خاتم النبيين وتمام عدة المرسلين وعلى آله
الطيبين الطاهرين، وأصحابه المنتجبين"

المحتويات

مقدمة

ملحـوظ أن مسـتوى العلاقـات الاجتماعيـة قـد سـجل تراجعـاً وانخفاضاً عما كان عليه قبل زمن ليس ببعيد في مجتمعاتنا.

فقد كان الناس أقرب إلى بعضهم، وأكثر اهتماماً ببعضهم بعضا، حيث بساطة الحياة، وتداخل المصالح، ومحدودية الاهتمامـات، والأجـواء الدينية الدافعة إلى التواصل والتراحم.

أما الآن فقد أوجبت ظروف الحياة نوعاً مـن التباعـد، حتـى بـين أبناء الأسرة الواحدة، في سكناهم ومواقع أعمـالهم، واسـتقلّ كـل فـرد بمصالحه وترتيب أمور حياته.

كما تعددت الاهتمامات، وزادت الانشغالات، فمتطلبـات الحيـاة كثيرة، وجهات الاستقطاب والاجتذاب متعددة، من إغراءات مصلحية، ووسائل إعلامية، ومجالات ترفيه.

ثم إن الأجـواء الدينيـة والأعـراف والتقاليـد، الـتي كانـت تشـدّ الناس إلى بعضهم بعضـا، وتشـعرهم بالمسـؤولية والالتـزام المتبـادل في علاقاتهم الاجتماعية، قـد تقلصـت وتضـاءل تأثيرهـا، بسـبب هيمنـة النوازع المصلحية، والاهتمامات الذاتية، حتى أصـبحنا نواجـه ظـواهر غريبة، من الجفاء والقطيعة حتى بين الأقارب والأرحام، وتُتناقل بعـض

القصص المثيرة عن تنكّر أبناء لآبائهم وأمهاتهم، يودعونهم دور رعاية المسنين، أو يتركونهم في المستشفيات، ولا يقومون حتى بزيارتهم أو تفقّد أوضاعهم!!

وهناك حالات مرعبة من إهمال بعض العوائل لأبنائها ومن حدوث تصاعد في جرائم العنف العائلي.

أما العداوات والنزاعات وحالات القطيعة بين الإخوة والأقارب، فضلاً عن الآخرين، فهي في زيادة مضطردة، وأغلبها لأسباب ومبررات بسيطة غير مهمة.

إن مثل هذه الظواهر، مؤشرات خطيرة على تراجع مستوى العلاقات، وانخفاض درجة الحسّ الإنساني في مجتمعاتنا.

كما أن العلاقات بين التيارات والتجمعات والعناصر الفاعلة في المجتمع، ليست على ما يرام، بل تكتنفها غالباً حالات من التباعد والخصام.

❁❁❁

إن مستوى العلاقات داخل أي مجتمع من المجتمعات ليس مسألة كمالية جانبية، بل هي عنصر أساس في تقرير وضع المجتمع، وتحديد مكانته وحركة مساره. فإذا كانت شبكة العلاقات الاجتماعية سليمة صحيحة، كان المجتمع مهيأً للتقدم والانطلاق. وعندما تسوء حالة العلاقات داخل المجتمع، فستنعكس على مجمل أوضاعه تخلفاً وانحطاطاً.

لذلك فإن أي حركة نهوض لا يمكنها أن تغفل شأن العلاقات

الاجتماعية، فهي أرضية الانطلاق، ومحفِّز الإنتاجية والتقدم.

وحينما انبثقت دعوة الإسلام في أرض الجزيرة العربية، فإنها ركّزت على إعادة صياغة العلاقات داخل المجتمع العربي، لانتشاله من حالة الصراعات القبلية، والنزاعات المصلحية، ونمط العلاقات الجاهلية المتخلفة.

وفي حديث القرآن الكريم عن عملية التحول الحضاري الإسلامي في المجتمع العربي، يتناول التغيير في شكل العلاقات الاجتماعية، كأهم إنجاز حققته الدعوة، وكان مقدمة لنجاة العرب وخلاصهم من الجاهلية والتخلف، يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ (آل عمران/١٠٣).

فالآية الكريمة تُذكِّر المسلمين بأهم نعمة أسبغها الله عليهم، وهي تغيير نمط علاقاتهم، من حالة التنافر والعداء، إلى مستوى الأُلفة والأخوة، فتمكنوا بذلك من تجاوز واقع السقوط والانحطاط، وأصبحوا أمة ذات رسالة وحضارة.

ويتكرر الحديث في الآية الكريمة عن تلك النعمة مرتين: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾. كما ينسب الله تعالى إلى نفسه إنجاز مهمة التأليف بين قلوبهم ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ لتعظيم هذه المهمة، ولأن برامج الوحي الإلهي وتوجيهاته، هي التي رفعتهم ونقلتهم إلى هذا المستوى المتقدم من الارتباط، والعلاقات الإيجابية.

وكانت المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، نقطة انطلاق للمجتمع الإسلامي الجديد في المدينة المنورة بعد الهجرة، فقد جاء المهاجرون المسلمون من مكة إلى المدينة كضيوف

غرباء، تخلوا عن عشائرهم وأهاليهم وأموالهم، وهاجروا في سبيل الله لخدمة الدين الحنيف، فاستقبلهم الأنصار «أهل المدينة» بحفاوة وترحيب، انطلاقاً من هدي الإيمان، وحب الرسول ﷺ، ولتوثيق عرى الارتباط والتماسك في هذا المجتمع الجديد، أعلن الرسول ﷺ مبدأ الأخوة الإيمانية، ثم وضع صيغة عملية تتمثل في المؤاخاة بين كل واحد من المهاجرين وآخر من الأنصار.

وحينما نقرأ الثورة الفرنسية، كطليعة للتغيير في أوروبا، نجد أن مسألة العلاقات داخل المجتمع، كانت في الصميم من اهتماماتها، ومن أولويات برامجها، ويتجلى ذلك في وثيقة حقوق الإنسان، التي أقرتها الجمعية الوطنية الفرنسية، أثناء الثورة الفرنسية، في ٢٦ أغسطس ١٧٨٩م.

ومجتمعاتنا اليوم، وهي تتطلع للنهوض والتقدم، في حاجة ماسّة للاهتمام بإصلاح شبكة علاقاتها الاجتماعية، بعدما أصابها الكثير من العوارض، مع تطورات الحياة المعاصرة.

إن سلامة العلاقات الداخلية، تنعكس إيجاباً على مختلف جوانب حياة المجتمع، فحركة المعرفة والفكر، تتقدم في ظل أجواء الحرية والتسامح، وأخلاقيات الحوار، واحترام الرأي.

والنشاط الاقتصادي يترعرع وينمو على أرضية التعاون وتظافر القوى والقدرات.

ومكانة المجتمع تتعزز في أنظار الآخرين حينما يكون أكثر تماسكاً وانسجاماً.

والحالة النفسية لأبناء المجتمع، تكون أبعد عن الأزمات والعقد

والأمراض، حين تصفو العلاقات، وتتقارب النفوس.

وهكذا تكون سلامة العلاقات هي الطريق إلى مجتمع أفضل.

ومن هنا تبرز أهمية السعي، وبذل الجهد، من أجل تنمية العلاقات الاجتماعية.

❀❀❀

في أجواء التخلف والركود الاجتماعي، تسود بعض الأفكار والثقافات السلبية، التي تخلق عزوفاً عند الناس عن بعضهم البعض، وتقيم بينهم الحواجز والسدود، وتعبّئ كل طرف ضد الآخر.

ومن أجلى مصاديق تلك الأفكار: النظريات العنصرية، التي تزعم تفوق عنصر من البشر على غيره، فتزرع عند أبنائه الشعور بالرفعة والتعالي، وتدفعهم نحو الهيمنة والسيطرة على الآخرين، أو انتقاصهم وازدرائهم، مما ينتج وبشكل طبيعي رد فعل رافض عند الطرف الآخر. فيعيش الطرفان حالة عداء ونزاع لا تنتج إلا المآسي والدمار.

ومن قبيلها ثقافة التعصب القومي، التي تستبطن الغض من شأن سائر القوميات، أو التنكر لشيء من حقوقهم وأدوارهم.

وكذلك ثقافة التعصب الديني والمذهبي، التي تدفع أصحابها نحو فرض توجهاتهم ووصايتهم على الآخرين، أو ممارسة العدوان تجاههم، وتجاهل حق الحرية والاختيار الذي منحه الله تعالى لبني البشر، في متبنياتهم الدينية والفكرية، قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ وقال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

وهكذا كل أنواع العصبيات من قبلية وحزبية وغيرها.

إن من حق كل إنسان أن يعتز بانتمائه وهويته، ومقتضى ذلك أن يعترف للآخرين بنفس الحق، مع الاحترام المتبادل للحقوق وعدم العدوان.

وما أحوج مجتمعاتنا إلى ثقافة التأكيد على حقوق الإنسان، والتي تحتل مساحة واسعة من الفكر الإسلامي، والتعاليم الدينية، بيد أن خضوع مجتمعاتنا لحالات من الاستبداد الديني والسياسي والاجتماعي، أضعفت حضور هذا الجانب الهام من ثقافتنا الإسلامية، إلى حد التغييب والإلغاء، حتى أصبح يُنظر إلى موضوع حقوق الإنسان، وكأنه طرح دخيل جاءنا من الغرب، ومن مفردات الغزو الثقافي.

من ناحية أخرى فإن استغراق الإنسان المعاصر في مشاكل الحياة ومتطلباتها وإغراءاتها، يجعله أقل ميلاً واهتماماً بالاقتراب من الآخرين والتواصل معهم. فلا بد من ثقافة تلفت الإنسان إلى عضويته في المجتمع، ومسؤوليته تجاهه، وأن تواصله الاجتماعي مظهر لإنسانيته، ونافع له في دنياه وآخرته.

❁❁❁

كل متأمل لمفاهيم الدين وتشريعاته، يدرك موقعية الجانب الاجتماعي وأولويته، فعلاقة الإنسان مع أبناء جنسه ومجتمعه، ليست مسألة هامشية جانبية، بل هي أصل أساس في أهداف الدين وغاياته، ولو استقرأنا آيات القرآن الكريم، لوجدنا القسط الأكبر منها متعلقاً بهذا الجانب.

وفي آيات عديدة من القرآن الكريم، يأتي الأمر بحسن العلاقة مع الآخرين رديفاً للأمر بعبادة الله تعالى. يقول تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ (النساء/ ٣٦).

ويقول تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

ويقول تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (الأعراف/ ٨٥).

وفي النصوص والأحاديث، نجد عدداً هائلاً منها يربط بين الإيمان والعلاقة الإيجابية مع الآخرين.

كما روي عنه ﷺ أنه قال: «المؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم».

وعنه ﷺ: «المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس».

وعنه ﷺ: «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه».

ونجد في المفاهيم والتعاليم الدينية مفردات كثيرة ترتبط بالجانب الاجتماعي، كصلة الرحم، والبر بالوالدين، وحسن الجوار، وإصلاح ذات البين، وقضاء الحوائج، وحسن الأخلاق، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وعيادة المريض.

إن هذه المفاهيم والتعاليم بحاجة إلى إثارة وتفعيل في واقع الحياة

الاجتماعية، وإلى تقديم برامج عملية لتجسيدها وممارستها بصيغ جديدة ومناسبة.

❀❀❀

مصطلح التنمية أصبح محوراً في جميع العلوم الإنسانية وتطبيقاتها فهناك تنمية اقتصادية وتنمية ثقافية وتنمية سياسية.. ويقصد بالتنمية وجود خطط تشق طريقها للتنفيذ من أجل تحقيق تطور وتقدم في ذلك المجال.

والعلاقات الاجتماعية بما لها من أهمية كبيرة، وما يعترضها من عوائق وعقبات، ويعتريها من تصدعات، تستحق أن تخصص لها إمكانيات وجهود، ضمن مؤسسات ترصد حال العلاقات في المجتمع، وتشخص أوضاعها وتطوراتها، وتضع الخطط والبرامج لتنميتها وتطورها.

ففي المجتمعات المتقدمة تقوم مؤسسات تعنى بالدراسات والأبحاث الاجتماعية، وتتابع الظواهر المستجدة عبر لغة الأرقام والبيانات، وتصدر تقاريرها وتوصياتها، التي يهتم بها المعنيون بالشأن الاجتماعي.

بينما لا زلنا نعتمد في تقويمنا للأوضاع الاجتماعية على الملاحظات العابرة، والتقديرات العامة، التي تتأثر بالنظرات الشخصية، والأجواء المحيطة. ولعل ذلك هو سبب ما نسمعه من تضخيم لبعض القضايا، وإهمال للبعض الآخر، كما أن التوجيه الديني والثقافي عندنا لا يتوفر على دراسات ومعلومات ينطلق منها في تحديد الأولويات، ومعالجة المسائل. فيبقى ضمن دائرة الجهود الفردية،

والطروحات العمومية.

إن الرصد العلمي للأوضاع الاجتماعية، مهم جداً، لتقدير حجم كل ظاهرة أو مشكلة، ولمعرفة مؤشرات حركة المجتمع، ودلالاتها السلبية والإيجابية.

فكيف هي حال العلاقات الأسرية في ظل متغيرات الحياة؟ .. وما هو مستوى العلاقة بين الفئات والجماعات المتمايزة في انتماءاتها الفكرية أو السياسية؟ وما هو مدى انفتاح المجتمع على المجتمعات المحيطة به؟ وما هي درجة الاهتمام بالشرائح الضعيفة من المجتمع كالفقراء والأيتام والمعوقين؟

إن الإجابة على هذه التساؤلات وأمثالها، هي من مهام مراكز المعلومات والبحوث والدراسات، التي لا يستغني عنها مجتمع معاصر.

وبعدها يأتي دور مراكز التوعية والتوجيه الثقافي التي تضع البرامج الفكرية والإعلامية حسبما تقتضيه خطط التنمية للعلاقات الاجتماعية.

وأخيراً لا بد من جهود عملية يقوم بها الخيِّرون المصلحون لمعالجة أي خلل في العلاقة.

❀❀❀

من خلال معايشتي للواقع الاجتماعي، وتفاعلي مع مختلف شرائحه، واهتمامي بتطوراته و قضاياه، لاحظت العديد من الثغرات والانسدادات في شبكة العلاقات الاجتماعية، ولمست التأثير السلبي

لبعض الأفكار والعادات والممارسات، على حركة التعاطي والتعامل بين أفراد أو فئآت المجتمع.

مما حفزني للتفكير في هذه الجوانب، ودراسة خلفياتها، واقتراح الحلول والمعالجات لتجاوزها، فكنت أرصد وتيرة العلاقات ومسارها، وأبحث في النصوص الدينية المرتبطة بهذا الشأن، وأقرأ بعض الكتابات والبحوث الاجتماعية الحديثة، كما أتابع التقارير والإحصائيات الاجتماعية، فتوفرت لدي حصيلة من الملاحظات والأفكار، طرحتها عبر المحاضرات واللقاءات، وكنت أكتبها لتنشر على شكل مقالات يسهل تداولها، ثم رأيت الفرصة سانحة لجمعها وتبويبها ضمن كتاب واحد. فكان هذا الكتاب الذي تتحرك صفحاته بين يدي القارئ الكريم.

أرجو أن يكون إسهاماً في ثقافة تنمية العلاقات الاجتماعية، وباعثاً للارتقاء بها، نحو مجتمع أفضل، ينسج علاقاته بخيوط المحبة، وروح التسامح، وإرادة التعاون، وفقاً للقيم الإنسانية، والمبادئ الإسلامية العظيمة.

والله ولي التوفيق،

حسن موسى الصفار
٢٧ ربيع الأول ١٤٢٣هـ

الفصل الأول

فلسفة العداوة

خطر العداوة

أسباب العداوات

الهروب من العداوات

الارتياب مدخل إلى العداوات

التحاسد نتاج وتكريس للتخلف

خطر العداوة

يحتاج الإنسان إلى أخيه الإنسان في بعدين:

الأول: البعد المادي:

للتعاون في تسيير أمور المعيشة والحياة، حيث أن الإنسان لا يستطيع بمفرده أن يهيء كل أمور حياته، بل لا بد له من التعاطي مع الآخرين من أبناء جنسه، فهو يحتاج إليهم وهم يحتاجون إليه، وكذلك الحال على مستوى المجتمعات والدول، فمهما كانت إمكانات أي دولة من الدول، لا تستطيع أن تعيش في عزلة عن المجتمع الدولي، وخاصة في هذا العصر، حيث وثّقت تطورات الحياة التداخل والتشابك في المصالح بين مختلف الشعوب والدول.

وكلما اتسعت وقويت علاقة الإنسان مع الآخرين، كانت أمور حياته أكثر يسراً وانتظاما، وهذا أمر واضح ملموس، فإذا كانت هناك حاجة أو قضية، لدى شخص يمتلك شبكة من العلاقات والارتباطات، ونفس القضية لدى شخص آخر منعزل اجتماعياً، فإن الأول يكون أقدر على إنجاز حاجته وأسرع في معالجة قضيته من الثاني.

الثاني: البعد النفسي:

حيث يأنس الإنسان بأخيه الإنسان، ولو توفرت لإنسان ما كل وسائل الحياة والرفاه، على أن يعيش منفرداً معزولاً، لما ارتاح لذلك، لذا فإن السجن الانفرادي يعتبر من أقسى وسائل التعذيب والتنكيل في المعتقلات.

ويرى بعض اللغويين أن أصل اشتقاق اسم الإنسان من الأنس: «الإنسان فعلان عند البصريين لموافقته مع الأنس لفظاً ومعنى. قيل: سمي بذلك لأنه خلق خلقة لا قوام له إلا بأنس بعضهم ببعض، ولهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع، من حيث أنه لا قوام لبعضهم إلا ببعض، ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه»[1].

لذا فإن لمستوى علاقات الإنسان مع من حوله من أبناء جنسه، تأثيراً كبيراً في مدى ارتياحه النفسي، فكلما كانت في درجة أفضل، كان أشد سعادة وهناءً.

من هذا المنطلق فإنه يجب أن يحرص الإنسان على علاقته بأخيه الإنسان، وأن يسعى لتطويرها وتفعيلها بأكبر قدر ممكن، فذلك يخدم مصالحه المادية، ويريحه ويسعده نفسياً.

التودد إلى الناس:

وفطرة الإنسان، وتفكيره المنطقي، يقوده إلى هذه الحقيقة، كما أن التعاليم الدينية تؤكد على أهمية حسن العلاقة بين الناس، وتعتبر نجاح الإنسان في علاقاته مع الآخرين مؤشراً على عمق تدينه ونضج عقله.

---

(١) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٥٧ ص٢٦٤.

فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: « خياركم أحسنكم أخلاقا، الذين يألفون ويؤلفون »[١].

وعنه ﷺ: « أقربكم مني غداً أحسنكم خلقاً وأقربكم من الناس »[٢].

وعنه أيضاً ﷺ: « لا خير فيمن لا يُؤلف ولا يألف »[٣].

ويقول كما روي عنه ﷺ: « رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس »[٤].

العداوة ومضارها:

العداوة تعني وجود خلل في العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وتعني حدوث حالة معاكسة ومناقضة لما يجب أن يكون، فبدل أن يأنس كل منهما بالآخر، ويتعاونا في تسيير شؤون حياتيهما، تحصل حالة التباعد والكراهية، ثم تتطور لتصل إلى مستوى النزاع والاعتداء المتبادل .. فالبغض والكراهية يأخذ مكان المحبة والأنس، والاعتداء على المصالح يحتل موقع التعاون.

إنها حالة شاذة غير طبيعية، تخالف الفطرة والوجدان، وتصادم المنطق والعقل، وتشكل تهديداً وخطراً على بناء حياة الإنسان، وحماية مصالحة.

والنصوص الدينية تحذر الإنسان من خطر العداوة، وتنبهه حتى

---

(١) المصدر السابق ج٧٤ ص١٤٩.

(٢) المصدر السابق ص١٥٠.

(٣) المصدر السابق ج٧١ ص٣٩٣.

(٤) الهندي: علي المتقي/كنز العمال ج٣ ص٩ حديث رقم ٥٩٧٣.

لا يتورط في مزالقها.

عن رسول الله ﷺ: «ماكان جبرئيل عليه السلام يأتيني إلا قال: يا محمد اتق شحناء الرجال وعداوتهم»[(١)].

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «ما عهد إلي جبرئيل عليه السلام في شيء ما عهد إلي في معاداة الرجال»[(٢)].

وعنه ﷺ: «ألا إن في التباغض الحالقة، لا أعني حالقة الشعر، ولكن حالقة الدين»[(٣)].

وروي عنه ﷺ أنه قال: «لم يزل جبرئيل عليه السلام ينهاني عن ملاحاة الرجال كما ينهاني عن شرب الخمر وعبادة الأوثان»[(٤)].

وعنه ﷺ: «ألا أنبئكم بشر الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من أبغض الناس وأبغضوه»[(٥)].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «والعداوة القليل منها كثير»[(٦)].

ويعتبر الإمام علي أن العداوة مع الناس قمة الجهالة يقول عليه السلام: «رأس الجهل معاداة الناس» و «معاداة الرجال من شيم الجهّال»[(٧)].

---

(١) الكليني: محمد بن يعقوب/ الأصول من الكافي ج٢ ص٣٠١.

(٢) المصدر السابق ص٣٠٢.

(٣) الحر العاملي: محمد بن الحسن/ تفصيل وسائل الشيعة ج١٢ ص٢٠٤ حديث رقم١٦١٩٥.

(٤) المصدر السابق/ حديث رقم١٦١٩٦.

(٥) النوري: ميرزا حسين/ مستدرك الوسائل ج٩ ص٧٩ حديث رقم١٠٢٦١.

(٦) المصدر السابق ص٧٨ حديث رقم١٠٢٥٩.

(٧) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم.

وفي كلمة أخرى يقول عليه السلام: «من زرع العدوان حصد الخسران»[1].

وللعداوة مضاعفات وأخطار كثيرة من أبرزها ما يلي:

١- عذاب النفس:

أرأيت كيف يتعب الإنسان ويرهق حينما يحمل ثقلاً على جسده؟ كذلك فإن العداوات والخصومات تمثل عبئاً ثقيلاً، وحملاً باهضاً على نفس الإنسان، تجلب له الأذى والإزعاج، وتسبب له الهم والغم، وتضغط على قلبه وأعصابه.

إنك حينما تدخل مجلساً وترى فيه أحبابا وأصدقاء، ينشرح صدرك، وتجلس مرتاحاً مستأنساً، بينما إذا دخلت مجلساً آخر ووجدت فيه من بينك وبينه عداوة وحساسية، تنزعج نفسياً وتتأذى، وحينما تبقى في المجلس لا تشعر بالراحة والرضا.

وهكذا يكون وجود حالة عداء سبباً للتوتر النفسي، فمجرد مرور ذكره على خاطرك، أو مرور اسمه على سمعك، أو رؤيتك لشخصه، يثير في داخلك مشاعر الغضب والانزعاج.

يقول الإمام علي عليه السلام: «إياكم والمراء والخصومة فإنهما يمرضان القلوب»[2].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إياكم والخصومة فإنها تشغل القلب»[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكليني: محمد بن يعقوب/ الكافي ج٢ ص٣٠٠.

(٣) المصدر السابق ص٣٠١.

وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «إياكم والخصومة فإنها تفسد القلب»[1].

وعن الإمام علي الرضا عليه السلام: «إياك والخصومة فإنها تردي بصاحبها»[2].

فالعداوة والخصومة عذاب للنفس، وضغط على الأعصاب، وهي تشغل القلب، وتمرضه، وتفسده، وتسبب الردى والهلاك لصاحبها، وكما قال الإمام علي عليه السلام: «من ساء خلقه فقد عذب نفسه».

٢- استهلاك الجهد:

بدل أن يشتغل الإنسان ببناء ذاته، ويوجه طاقته وجهده لإصلاح أموره، ولتقدمه وتطور حياته، فإن حالة عدائه مع الآخرين، تقتطع جزءاً من اهتمامه وتفكيره، وطاقاته وإمكاناته، وذلك بالطبع لا يتوجه لحماية الذات من الآخر المعادي فقط وإنما لإيقاع الضرر به وتحطيمه، والقضاء على إمكاناته ومصالحه، كما يقوم الطرف الآخر بنفس المحاولة والدور، وبهذا تضيع الجهود وتهدر الإمكانيات من الطرفين.

والمثال الأجلى والأوضح هو الحروب التي تنشأ بين الدول المتجاورة، كالحرب العراقية الإيرانية، والتي حطمت اقتصاد البلدين، وأثرت على البنية التحتية فيهما، وعوقت التطور والتقدم في الدولتين، مع الخسائر العظيمة في النفوس والأرواح.

---

(١) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٥ ص١٨٦.

(٢) النوري: ميرزا حسين/ مستدرك الوسائل ج٩ ص٧٧ حديث رقم١٠٢٥٤.

٣- مرمى السهام:

حينما يعادي الإنسان الآخرين، فيجب أن لا يتوقع منهم باقات الورود، ولا رسائل الحب والاحترام، بل سيكون في مرمى سهامهم، ومعرض انتقامهم، وسيستخدمون ضده الأسلحة التي بأيديهم، خاصة وأن الناس يتفاوتون في مستويات تفكيرهم، وضوابط تصرفاتهم وممارساتهم، وعلى الإنسان أن يتوقع أسوأ الاحتمالات، من جانب المعادين له، قد تتعرض حياته للتصفية، وأمواله للنهب، وسمعته للتشويه، ويعتدى على حقوقه، وتصنع له العوائق والعقبات في طريق أعماله ونشاطاته.

ولا يخلو الإنسان من نقاط ضعف، وثغرات خلل، عادة ما تكون مستورة خافية، فإذا ابتلي بأعداء وخصوم، فإنهم سينقبون عن أخطائه، ويفتشون عن ثغراته، وينفذون من خلال نقاط ضعفه، لإيقاع الضرر به، وتوجيه الأذى إليه.

لذلك يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إياك وعداوة الرجال فإنها تورث المعرّة، تبدي العورة»[1].

فالعداوة تسبب المعرّة أي الأذى، وتكشف العورة، أي نقاط الضعف والخلل.

وأوصى الإمام علي بن أبى طالب عليه السلام أبناءه يوماً فقال لهم: «يابني إياكم ومعاداة الرجال، فإنهم لا يخلون من ضربين: من عاقل يمكر بكم، أو جاهل يعجل عليكم». ثم أنشأ يقول:

سليم العرض من حذر الجوابا ... ومن دارى الرجال فقد أصاب

(١) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٢ ص٢١١.

ومـــن هـــاب الرجـــال تهيبـــوه ومن حقر الرجال فلـن يـــهابا[1]

وقال عليه السلام في كلمة أخرى: إن للخصومة قحما. وفسرها الشـريف الرضي بقوله: يريد بالقحم المهالك، لأنها تقحم أصـحابها في المهالـك و المتالف في الأكثر[2].

٤- الوقوع في الحرام:

بغض النظر عن مبررات العداء، فإن حالة العداء غالباً مـا تـدفع الإنسان، لارتكاب مختلف المعاصي والذنوب، من أجل تحقيق الانتصـار على عدوه، وإيقاع أكبر قدر من الضرر به، فالكذب والغيبة والنميمـة، والسب والشتم، والاعتداء والظلم والتآمر، وما شـاكل مـن المحرمـات، كلها وسائل يجد الإنسان نفسه مدفوعاً لاستخدامها في معارك خصوماته وعداواته.

وفي كلمة رائعة يصور الإمام علي عليه السلام موقف من تـورط في عـداء أو خصومة، بأنه بين أحد خيارين كلاهما مر، فإما أن يتنازل ويقصّـر في المواجهة، فيعطي الفرصة لعدوه أن يتمكن منه ويتغلب عليـه ويظلمـه، وإما أن يدخل المعركة بكل ما أوتـي مـن قـوة، ويسـتخدم كـل أسـلحة المواجهة، مشروعة وغير مشـروعة، وذلـك يعرّضـه لارتكـاب المعاصـي والذنوب، ويبعده عن تقوى الله، فيناله الإثـم والسـخط الإلهـي. يقـول عليه السلام: «من بالغ في الخصومة أثم، ومن قصر فيها ظلم، ولا يسـتطيع أن يتقي الله من خاصم»[3].

---

(١) المصدر السابق ص٢٠٩.

(٢) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة/ من غريب كلامه رقم٣.

(٣) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة- قصار الحكم٢٩٨.

وعلّق على هذه الكلمة أحد شرّاح نهج البلاغة بقوله: أشار عليه السلام في هذا الكلام إلى أن الخصومة داء لا دواء له، ولا يحصل منها إلاّ الضرر و الخسار، فإن الداخل فيها إذا بالغ يأثم ويبتلى بالخسار الأخروي، وإن قصّر ظلم ويبتلى بالخسار الدنيوي، ويصعب الوقوف بين هذين الحدين، ورعاية أصل التقوى في البين، فمن أراد النجاح فلا بد له من عدم الدخول في الخصومة، والوقوف دائما على الصلح والإصلاح[1].

وفي وصيته لمؤمن الطاق محمد بن النعمان يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «وإياك وكثرة الخصومات فإنها تبعدك عن الله»[2].

وضمن هذا السياق ما روي عن الإمام الرضا عليه السلام: «وإياك والخصومة فإنها تورث الشك، وتحبط العمل، وتردي بصاحبها، وعسى أن يتكلم بشيء لا يغفر له»[3].

٥- إضعاف المجتمع:

المجتمع الذي تسوده أجواء المحبة والوئام، وينشغل أبناؤه بالعمل الإيجابي، والنشاط البنّاء، ويتعاونون فيما بينهم على خدمة مصالحهم، وتسيير أمورهم، هذا المجتمع تكون بنيته قوية، وكيانه متماسك ثابت، بينما المجتمع الذي تدبّ في أوساطه الخصومات، وتنتشر النزاعات والعداوات، فإنه يصاب بالضعف والهزال، ويبتلى بالتفكك والانهيار.

لذلك يحذر الله تعالى عباده المؤمنين من خطر التنازع والتعادي،

(١) الخوئي: ميرزا حبيب الله/ منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ج٢١ ص٣٨٩.
(٢) الحراني: الحسن بن علي بن شعبه/ تحف العقول ج٢١ ص٣٨٩.
(٣) النوري: ميرزا حسين/ مستدرك الوسائل ج٩ ص٧٧.

وينذرهم بأن النتيجة الحتمية لذلك هو هدر إمكانات المجتمع، وذهاب قوته، وبالتالي فشل المجتمع في تحقيق مصالحه وأهدافه، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[1].

---

(١) سورة الأنفال٤٦.

أسباب العداوات

لماذا يعادي الإنسان أخاه الإنسان؟ ولماذا يمارس العدوان ضده؟

إنها ظاهرة قديمة بدأت منذ الأيام الأولى لهبوط الإنسان على وجه الأرض، وضمن أول أسرة بشرية صغيرة لأبينا آدم عليه السلام حيث اشتعلت نار العداء والكراهية في نفس قابيل على أخيه هابيل، ودفعته إلى قتله وتصفية حياته!! ثم رافقت المجتمع الإنساني هذه الحالة المرضية طوال مسيرة حياته، فلا تخلو مسافة زمنية، ولا منطقة جغرافية، يعيش فيها بشر، من حالات العداء، وممارسات العدوان ..

وقد لاحظ العلماء أن الإنسان أكثر من سائر الحيوانات توحشاً وقسوة في عدائه الضمنوعي حيث لا يوجد عدوان يؤدي للقتل بين الحيوانات من نفس النوع، فالذئب لا يقتل ذئباً، والأسد لا يقتل أسداً، لكن الإنسان يتجرئ على قتل أخيه الإنسان!! بل إن معاناة الإنسان وآلامه ومآسيه، التي تجرعها من أبناء نوعه وجنسه، هي أكبر بكثير مما لاقاه من كوارث الطبيعة، واعتداء سائر الحيوانات المفترسة ..

وخالق الإنسان وهو الله سبحانه وتعالى حذره من مغبة هذه النزعة، منذ صدور القرار الإلهي بخروج آدم وحواء عليهما السلام من الجنة، وبدء حياتهما على سطح الأرض، يقول تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [1] .

أما أسباب هذه الظاهرة، وتفسير هذه الحالة، فقد أصبحت ميداناً لبحوث العلماء، ومسرحاً لآرائهم المختلفة، ونظرياتهم المتعددة، ونشير إلى أبرز تلك النظريات والآراء.

نظريات بيولوجية:

هناك مدرسة علمية تحليلية، ترى أن ظاهرة العداوة والعدوان، تعود إلى سبب تكويني في خلقة الإنسان وجسمه، فهي حتمية بيولوجية. ومن أبرز أعلام هذه المدرسة سيزارلومبروزو «١٨٣٦ ١٩٠٩م» وهو إيطالي، اختصاصي بعلم الجريمة.

ينطلق أساس نظرية «لومبروزو» من الحتمية البيولوجية للعدوان، وربط هذه الحتمية بسببين:

السبب الأول: يعود إلى مرحلة سابقة في التطور، هي مرحلة الإنسان البدائي المتوحش، إذ يرجع إجرام الشخص إلى ارتداده الوراثي لهذه المرحلة.

والسبب الثاني: يرتبط بالانحطاطية المرضية، التي تنشأ من مرض الصرع الذي ينتقل بالوراثة.

وبرر السبب الأول، من خلال الفحوصات التي أجراها على عدد كبير من جماجم المجرمين ورؤسهم، إذ وجد أن جمجمة المجرم تشبه في تركيبها التشريحي، ذلك التركيب التشريحي الذي تتميز به جمجمة الإنسان البدائي المتوحش. كما برر السبب الثاني، بتكرار السلوك

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٦.

الإجرامي لدى مرضى الصرع. ويرى أن المجرمين يتميزون بخصال تشريحية ونفسية لا تتبدى لدى غيرهم.

وضمن هذه المدرسة، تبنى آخرون نظرية المورّث الزائد، وتعتمد هذه النظرية على أن شذوذ الكرموزومات، وبالتحديد ذلك الشذوذ المتعلق بالمورّث الذكري الزائد « » يؤدي إلى نتائج جسدية وعقلية خطيرة، وقد ساد الاعتقاد بأن المورّث « » يسبب العدوان، نتيجة للملاحظات حول العلاقة بين الزيادة الشاذة لهذا المورث لدى البعض وتكرار السلوك العدواني لديهم.

وهناك دراسات وبحوث تربط بين العدوان وتخطيط المخ، وتشير إلى أن الأفراد الذين يعانون من انحرافات في مخططات أمخاخهم، يظهر عليهم العدوان، وتشير كذلك لوجود خلل عضوي يرافقه اختلال وظيفي .

نظريات سيكولوجية:

يرى بعض العلماء أن السلوك العدواني لدى الإنسان والكائنات الحية الأخرى، ينبعث من قوة داخلية تسمى الغريزة العدوانية. وينظّر لهذا الرأي « كونراد لورنز » ـ عالم نفس وحيوان، من النمسا ولد عام ١٩٠٣م ـ في كتابه الشهير « في العدوان » الذي صدر عام ١٩٦٣، مؤكداً غريزية العدوان، وأن هذه الغريزة تحتاج إلى تحرير أو إفراغ بين فترة وأخرى، من أجل تخفيف الضغط الداخلي الذي تسببه على صاحبها، وسبب هذا الضغط هو تراكم الطاقة العدوانية، بعد إفراغها بوقت معين. فالسلوك العدواني يتوقف حدوثه على تراكم هذه الطاقة داخل المتعضية « الكائن الحي » من جهة، وعلى درجة فعالية منبهات العدوان الخارجية من جهة أخرى. وكلما زاد تراكم هذه الطاقة، عمل

أضعف منبه خارجي للعدوان على إثارتها في شكل عدوان صريح. أما إذا مضى وقت كاف دون إفراغ هذه الطاقة، فإن العدوان يحدث تلقائياً في غياب المنبه الخارجي.

ويرى « لورنز »: أن جميع المحاولات للقضاء على العدوان ستكون فاشلة، وأن الإجراء الأكثر فاعلية للتخفيف من العدوان، هو تحرير الطاقة العدوانية، من خلال ممارسات يقرّها المجتمع، كالرياضة والمنافسات غير الضارة.

ولعل من أشهر نظريات المدرسة النفسية لتفسير السلوك العدواني، نظرية الإحباط ـ العدوان. إذ ينظر للعدوان باعتباره نتيجة للاحباط دائماً. فكلما حدث موقف محبط، ظهر العدوان كاستجابة لهذا الإحباط.

والإحباط: عملية تتضمن إدراك الفرد لعائق يعوق إشباع حاجة له، أو توقع حدوث هذا العائق في المستقبل.. وينتهي الإحباط في الكثير من الحالات إلى العدوان، ويظهر المصاب بالإحباط شديد التوتر ميالاً إلى اقتناص أية فرصة تتاح له، للخلاص من ضغط التوتر لديه. وقد يتجه العدوان نحو مصدر الإحباط، وقد يتجه نحو آخرين.

نظرية التعلم الاجتماعي:

وتعتمد هذه النظرية على المحيط الاجتماعي كأساس أو كأصل لنشوء حالة العداوة والعدوان، من خلال الملاحظة والمحاكاة.

ومن أبرز أعلام هذه النظرية « البورت بندورا » ـ ولد عام ١٩٢٥م بكندا واختير رئيساً للجمعية النفسية الأمريكية ١٩٧٣م وعمل مدرساً لمادتي علم نفس العدوان وتغيّر الشخصية ـ. وكان كتابه

« العدوان: تحليل اجتماعي » محاولة للإجابة على سؤال: لماذا يعتدي البشر؟.

ويرى « بندورا » أن السلوك البشري يكتسب من خلال ملاحظة النماذج السلوكية، التي تحدث في البيئة الاجتماعية المحيطة بالفرد أو الجماعة.. فإذا انتبه الطفل إلى نماذج عدوانية، خلال حياته العائلية، أو عبر مشاهدة أفلام عنف في التلفزيون مثلاً، فإنه يقوم بتخزين هذه النماذج السلوكية، والاحتفاظ بها في الذاكرة، فإذا ما حصل تعزيز أوتشجيع، تحوّل ذلك إلى سلوك عدواني

وعلى هذا الأساس، فالناس لا يولدون مزودين بغريزة للعدوان، بل إنهم يتعلمونه مثل أي سلوك متعلّم آخر. فالأفراد الذين شاهدوا غيرهم يعتدي، تكون احتمالية اعتدائهم أكبر من أولئك الذين لم يشاهدوا النماذج العدوانية.

هذه بعض النظريات حول تفسير ظاهرة العداوة والعدوان في المجتمع البشري، وهناك نظريات أخرى عديدة، ضمن هذه التوجهات أو غيرها، وقد استعرض أكثرها وناقشها الباحث الأستاذ/ أسعد النمر في كتابه القيّم « في سيكولوجية العدوان » [1]، والذي اعتمدناه مصدراً في الحديث عن تلك النظريات، وحول كل نظرية هناك نقاشات وردود وملاحظات، للمهتمين بدراسة هذا الموضوع، يمكن الرجوع إليها في المراجع المختصة.

وواضح أنه لا يمكن القبول بالنظريات التي تعتبر العدوان حتمية

---

(١) النمر: اسعد/ في سيكولوجية العدوان ـ الطبعة الاولى ١٩٩٥م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت.

بيولوجية، لأن ذلك يعني إنكار إرادة الإنسان واختياره، وبالتالي فإنه لا يتحمل مسؤولية عمله ما دام مجبوراً عليه، فلا يستحق بذلك عقاباً أو جزاء، كما لا جدوى إذاً من التصدي للسلوك العدواني، مما يعطي تبريراً أيديولوجياً لهذه الممارسات. كما أن العوامل النفسية تهيئ الفرد وتجعله مستعداً للسلوك العداوني، دون أن تشكل حتمية تلغي إرادته واختياره.

ولسنا مضطرين لتفسير العدوان برؤية أحادية، بل قد تتفاعل عوامل مختلفة لانبعاث حالة عدوانية، كما تتمايز حالات عن أخرى في جذورها وأسبابها.

تضارب المصالح:

وإذا ما تجاوزنا الحديث عن النظريات التحليلية، وفتشنا عن الأسباب الميدانية المباشرة، التي تنجم منها حالات العداء والعدواة بين الناس لوجدنا أن في طليعتها: تضارب المصالح.

فلكل إنسان في هذه الحياة مصالحه وتطلعاته، التي تعبر عن احتياجاته ورغباته، فإذا ما حال أحد أو تصور أنه يحول بينه وبين حاجة له أو رغبة عنده، فسيتخذ منه موقف العداء، ويواجهه بالعدوان.

وأغلب الصراعات والنزاعات في عالم البشر، تحصل بسبب اصطدام المصالح، كالنزاع على السلطة والحكم، أو على الثروة والمال، أو على الامتيازات والمواقع.

ثم قد تحدث هذه النزاعات بين أفراد وقد تكون بين فئآت وجماعات، وبين دول وحكومات.

إن سعي الإنسان لتحقيق مصالحه، وإشباع حاجاته ورغباته، أمر

مشروع، لكن ذلك يجب أن يكون ضمن حدود الاحترام لحقوق الآخرين، وحريتهم في السعي لخدمة مصالحهم، مما يستلزم وجود نظام وقانون عادل، ينظم سير الناس وتنافسهم في توفير شؤون حياتهم، ومتعلقات ميولهم ورغباتهم.

وغياب ذلك القانون، أو تحيزه لبعض دون آخر، أو عدم وضوحه، قد يكون مسبباً لحالات من التصادم والتضارب في المصالح.

وفي أحيان كثيرة تدفع الأطماع والرغبات أصحابها، إلى تجاوز الحدود، وانتهاك حقوق الآخرين، وهم يعلمون أن ما يقدمون عليه مخالف للنظام والقانون، ومدان من قبل الضمير والوجدان، لكن الطمع والرغبة تقود الإنسان إلى الظلم والعدوان، ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «حبك للشيء يعمي ويصم»[1].

عداوات الأقارب:

علاقة الإنسان مع أرحامه وأقربائه يفترض أن تكون وثيقة متينة، فهناك ارتباط وجودي تكويني تثبته الجينات والمورثات، والتي أصبح العلم يعتمدها للتأكد من الانتساب والانتماء العائلي، وبالتعبير الشعبي إنها علاقة لحم ودم. وأيضاً فهي صحبة عمر حيث يبدأ الإنسان حياته في أحضان عائلته، ورعاية أسرته، ويبقى في ظل هذه العلاقة يلوذ بها وخاصة عند عواصف الزمن، وشدائد الحياة، وهناك الوشائج العاطفية، التي تشده إلى أرحامه وأقربائه.

هذه العلاقة المتجذرة والعميقة، من المؤسف جداً أن تعصف بها في بعض الأحيان، رياح الأطماع وتضارب المصالح المادية الزائلة،

---

(١) المجلسي: محمد باقر/ بحار الانوار ج٧٤ ص١٦٤.

فتنسفها وتجتثها، حتى بين الإخوان الأشقاء المنحدرين من صلب أب واحد، ورحم أم واحدة!!

والعداوة بين الأقرباء من أسوأ أنواع العداوات، لما تتركه في النفس من عظيم الألم، وعمق الجراح، ولما تخلفه من قطع الأرحام، ووشائج القربى، وتمزيق العوائل والأسر، ولأن الأقرباء أقدر على الإضرار ببعضهم، لمعرفتهم نقاط الضعف فيما بينهم.. لذلك روي عن الإمام علي عليه السلام قوله: «عداوة الأقارب أمضّ من لسع العقارب»[1].

وكم نجد في مجتمعاتنا من عداوات بين الأقرباء بسبب الخلاف على الإرث؟ وكم من إخوة أشقاء أو غير أشقاء خاضوا ضد بعضهم معارك العداء والكراهية، وانفصمت بينهم عرى الأخوة ووشائج الرحم لاختلافهم على شيء من تركة أبيهم؟

---

(١) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم.

الهروب من العداوات

حالة العداوة مع أي أحد من الناس ليست ممتعة ولا مريحة، فهي عبء على نفس الإنسان، واستهلاك لاهتماماته وجهوده، وهدر لطاقات المجتمع، وتمزيق لوحدته وانسجامه.

لذلك على الإنسان العاقل الواعي أن يتجنب العداوات والخصومات، فلا يبادر أحداً بخصومة، ولا يصدر منه ما يسبب نزاعاً أو عداءً من قول أو فعل.

وإذا ما حاول أحد أن يستدرجه لعداوة أو صراع، فليتحلى بالذكاء وضبط النفس كي لا يقع في الفخ، فإن العداوة نفق لا يعرف الإنسان إذا دخله كيف يخرج منه؟

إن من صفات المؤمنين الواعين، التي يشيد بها القرآن الكريم، أنهم لا يستجيبون لإثارات العداء الصادرة من الجاهلين والمخالفين، بل يعرضون عنها كأنها لم تكن، ولا يقفون عندها بل يمرون عليها مرور الكرام، ويرفعون تجاهها شعار المسالمة والموادعة.

١ـ إن افتعال المشاكل مع الناس حالة سلبية عبثية يقوم بها الجاهلون الفارغون، أو المنحرفون المغرضون، وإذا ما تفاعل الإنسان مع حركاتهم العدوانية، وأبدى بها اهتماماً، ورد فعل، فإنه يحقق غرضهم،

ويساعد في إنجاح خطتهم لإيجاد المشكلة معه، وتوريطه فيها. لذا فإن المؤمن الواعي يفوّت عليهم الفرصة، ويتجاهل محاولاتهم لاستدراجه للصراع. يقول تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [1].

واللغو هو ما لا فائدة فيه. روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ قال عليه السلام: هو أن يتقول الرجل عليك بالباطل، أو يأتيك بما ليس فيك فتعرض عنه لله. وقال مقاتل: هو الشتم فإن كفار مكة كانوا يشتمون النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فنهوا عن إجابتهم[2].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [3].

يقال: تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عنه، وقيل: مرورهم كراماً هو أن يمروا بمن يسبهم فيصفحون عنه[4].

ويعبر عن هذا الموقف المتسامي قول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني　　فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

٢ـ وإذا كانت نفس الجاهل المغرض تطفح بالمساوئ والرذائل،

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١ ـ ٣.

(٢) الطبرسي: الفضل بن الحسن/ مجمع البيان في تفسير القرآن ج١٨ ص١٣٦ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

(٣) سورة القرقان الآية٧٢.

(٤) الطبرسي: الفضل بن الحسن/ مجمع البيان في تفسير القرآن ج١٩ص١٣٠ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

فيلهج لسانه بكلمات الإثارة، وعبارات الطعن والتجريح، فإن نفس المؤمن الواعي مطمئنة بالخير والهدى، فما يفيض على لسانه إلا حديث الخير والصلاح، فلا يجابه كلمات السفه والعداء، إلا بمنطق السلم والتسامي عن اللغو والجهل.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (1).

فهم يعرضون عن أصحاب الكلام السيئ التافه، على أساس الالتزام بمنهجيتهم المستقيمة، وحتى لا ينزلقوا في طريق السوء والانحراف ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ كما أنهم يرفعون شعار المسالمة، ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ ولا يضمرون في أنفسهم حقداً يدفعهم للانتقام والتشفي. وقد يكون ذلك تعبيراً عن الترك والانصراف فهو سلام وداع، إنهم يعلنون إنهاء اللقاء ولكن بإبداء تحية الوداع ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

يقول العلامة الطباطبائي: «أي إذا خاطبهم الجاهلون خطاباً ناشئاً عن جهلهم مما يكرهون أن يخاطبوا به أو يثقل عليهم، كما يستفاد من تعلق الفعل بالوصف، أجابوهم بما هو سالم من القول، وقالوا لهم قولاً سلاماً خالياً عن اللغو والإثم» (2).

وتكرر آيات عديدة في القرآن هذا المعنى تأكيداً لأهمية هذا السلوك الواعي، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾(3).

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(4).

---

(1) سورة القصص الآية٥٥.

(2) الطباطبائي: اليسد محمد حسين/ الميزان في تفسير القرآن ج١٥ ص٢٣٩.

(3) سورة الفرقان الآية٦٣.

(4) سورة الزخرف الآية٨٩.

ضبط الانفعالات:

الإنسان كائن حي زوده الله تعالى بغرائز وشهوات، منها تنطلق انفعالاته، وبها يحقق لذاته ومصالحه.

ومن الغرائز العميقة في نفس الإنسان ووجوده غريزة الغضب، والتي تتحرك وتثور حينما يتعرض للخطر والعدوان، أو تنتصب في وجهه العوائق والعقبات لتحول بينه وبين تحقيق رغباته ومتطلباته.

وبالانفعالات الصادرة عن هذه الغريزة، يدافع الكائن الحي عن نفسه، ويصد الخطر عن وجوده ومصالحه.

إن الإساءات التي تقع على الإنسان من الآخرين، تأخذ دور المنبّه والمثير لهذه الغريزة الكامنة في النفس، وعلى أساس هذه الإثارة تحصل الاستجابة الانفعالية، وتترجم في الواقع الخارجي ممارسة عدائية انتقامية.

فهناك إذن جوانب ثلاثة:

١ ـ كائن حي ـ إنسان ـ يمتلك قوة غريزية غاضبة.
٢ ـ حدث أو تصرف يكون منبهاً مثيراً لتلك الغريزة.
٣ ـ استجابة انفعالية تجاه تلك الإثارة.

وإذا كان وجود غريزة الغضب أمراً طبيعياً وضرورياً لحياة الإنسان، فإن الناس يتفاوتون في مدى الاستجابة للمنبهات والمثيرات التي تتجه صوب هذه الغريزة.

فالبعض من الناس تكون استجاباتهم الانفعالية خفيفة سريعة، فأقل كلمة تشعل نار الغضب في نفوسهم، وأبسط تصرف تقوم من أجله قيامتهم، ويندفعون للانقضاض على الطرف الآخر بأي وسيلة

انتقامية متاحة لديهم.

وهذا الصنف من الناس يصعب عليهم الانسجام مع الآخرين، ويعجزون عن كسب الأصدقاء والمحبين، ويعيشون حياة شقية قاسية مليئة بالعداوات والخصومات.

إنهم يطلقون العنان لغريزة الغضب، فتضعف الإرادة ويتراجع العقل أمامها.

وقد يندفع الإنسان الغاضب لأعمال وممارسات يندم فيما بعد على ارتكابها، حيث لا يفيد الندم. فكم من أب ينزعج من تصرفات أطفاله الصغار، فينهال عليهم ضرباً مبرحاً يسبب لهم أضراراً وإعاقات جسمية، يتحمل هو فيما بعد عناء معالجتها إضافة إلى الإثم وسخط الرب، وعذاب الضمير؟

وكم من زوج يتفجّر بركان غضبه لخطأ ما صدر من زوجته تجاهه، فتضطرب حياته العائلية، وينهدم كيان أسرته، أو يصاب بشرخ عميق؟ وقد يحصل مثل ذلك من قبل الزوجة تجاه زوجها.

وكم من إنسان خسر صديقاً نافعاً مخلصاً لعدم احتماله نقص أو تقصير صدر منه، فواجهه بغضب وانفعال؟

وكم من شخص أوقع نفسه في صراع غير متكافئ مع جهة قوية غاشمة، لأنه لم يفكّر في نتائج انفعالاته؟

إن العقلاء الواعين من الناس هم الذين يجعلون عقولهم حاكمة على غرائزهم، ويفسحون المجال لإرادتهم لضبط انفعالاتهم. فيتحلّون بالرزانة والوقار أمام المثيرات والمنبهات، ولا يستجيبون لشيء منها إلا بقرار عقلي سليم، وعبر أدوات وأساليب مناسبة.

هذا الضبط للانفعالات، تطلق عليه في مدرسة الأخلاق عدة عناوين: كالحلم وكظم الغيظ والعفو والتسامح والصبر.

وبه يتجاوز الإنسان الضغوط النفسية التي تسببها الإثارات المسيئة، كما يتجنب الوقوع في فخ العداوات والخصومات، بل ويكسب القلوب والمواقف في المحيط الاجتماعي.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«جمال الرجل حلمه»

«من حلم ساد»

«بالحلم تكثر الأنصار»[1].

إن من تعيش معهم بشر، فيهم أمزجة مختلفة، وطباع متفاوتة، وفيهم جهال ومغرضون، فحدوث الإساءات والأخطاء من قبلهم أمر وارد ومتكرر، فعلى الإنسان أن يستوعب الآخرين، ويتحمل أخطاءهم وإساءاتهم ليكون أقدر على التعايش معهم.

وبإمكان الإنسان أن يروّض نفسه ويدرّبها على الاحتمال والتجاوز وأن لا ينفعل أمام أي إثارة، بل يتسامى ويغضّ الطرف عن الأخطاء، ليوفّر قوته وغضبه للموارد التي تتطلب ذلك وتستحقه.

إن الحساسية المرهفة عند البعض من الناس تجعله في حالة استنفار وانفعال دائم تجاه الآخرين، حيث تتضخم لديه الأمور البسيطة، ويغضب للمسائل التافهة. فينزلق إلى أوحال الأزمات والمشاكل. يقول الإمام علي عليه السلام: «من عاتب أخاه على كل ذنب كثر عدوه».

---

(١) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم.

أخلاق أئمة الهدى:

وتطرق أسماعنا قصص عظيمة، ومواقف رائعة، من حياة الرسول محمد ﷺ وأئمة الهدى من أهل بيته عليهم السلام، في سموهم وتساميهم على إثارات الجاهلين والمغرضين، ومقابلتهم الإساءة بالإعراض والصفح، والحلم والعفو، لكننا غالباً ما نكتفي بهز رؤوسنا طرباً وإعجاباً بتلك الأخلاق الحضارية الرفيعة، بينما المطلوب هو استلهام الدروس والعبر من تلك القصص والمواقف، وجعلها في موضع التأسي والاقتداء.

١ ـ روي أن الإمام علي عليه السلام كان جالساً في أصحابه، فمرت بهم امرأة جميلة، فرمقها القوم بأبصارهم، فقال عليه السلام: إن أبصار هذه الفحول طوامح، وإن ذلك سبب هَبَابِها، فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلامس أهله، فإنما هي امرأة كامرأته.

فقال رجل من الخوارج: «قاتله الله كافراً ما أفقهه» فوثب القوم ليقتلوه، فقال عليه السلام: رويداً إنما هو سب بسب، أو عفو عن ذنب[1].

وسمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً يشتم قنبراً ـ خادمه ـ وقد رام قنبر أن يردّ عليه، فناداه أمير المؤمنين عليه السلام: مهلاً يا قنبر! دع شاتمك مهاناً ترضي الرحمن، وتسخط الشيطان، وتعاقب عدوك، فوالذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة، ما أرضى المؤمن ربه بمثل الحلم، ولا أسخط الشيطان بمثل الصمت، ولا عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه[2].

٢ ـ وكان الإمام الحسن بن علي عليه السلام راكباً فاستقبله رجل من

---

(١) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة/ الحكم ٤٢٠.

(٢) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٦٨ ص٤٢٤.

أهل الشام، صار يسب الإمام ويشتمه، والحسن لا يرد عليه بشيء، فلما فرغ أقبل عليه الإمام مسلماً عليه وقائلاً: أيها الشيخ أظنك غريباً، ولعلك شبّهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، ولو حركت رحلك إلينا وكنت ضيفاً إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك.

فخجل الرجل من نفسه وتغيّر موقفه من الإمام.

٣ ـ خرج الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام إلى المسجد يوماً فسبّه رجل، فأسرع الناس للانتقام منه، فنهاهم الإمام عن ذلك، وأقبل عليه قائلاً: ما ستره الله عنك أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟

واستقبله يوماً رجل آخر يكيل له السب والشتم، فأجابه الإمام: يا فتى إن بين أيدينا عقبة كؤودا، فإن جزت منها فلا أبالي بما تقول، وإن أتحيّر فيها فأنا شر مما تقول.

ومرة أخرى كان الإمام زين العابدين ماشياً فاعترضه شخص معتدياً عليه بالسب والشتم، لكن الإمام أشاح بوجهه عنه، فصرخ الرجل في وجه الإمام: إياك أعني!

فأجابه الإمام فوراً: وعنك أغضي.

وفي موقف آخر: افترى عليه رجل وبالغ في الإساءة والشتم، فقال عليه السلام: إن كنا كما قلت فنستغفر الله، وإن لم نكن كما قلت فغفر الله لك[1].

---

(١) القرشي: باقر شريف/ حياة الإمام زين العابدين ج١ ص٧٦ـ٧٧ الطبعة الأولى ١٩٨٨م دار الكتاب الإسلامي ـ قم.

٤.قال الإمام محمد الباقر عليه السلام لأحد أصحابه ومحبيه علقمة الحضرمي: إني أراك لو سمعت إنساناً يشتم علياً فاستطعت أن تقطع أنفه فعلت.

قلت: نعم

قال: فلا تفعل، ثم قال: إني لأسمع الرجل يسبّ علياً وأستتر منه بالسارية، وإذا فرغ أتيته فصافحته[١].

إن مثل هذه المواقف دروس نستوحي منها القدرة على التحكم في انفعالاتنا، وأن لا تستدرجنا الاستفزازات والإثارات للدخول في معارك جانبية، وصراعات طفولية.

عز الحلم وذل الانفعال:

يتصور البعض من الناس بأن غض الطرف عن الإساءة، والتجاوز عن الخطأ، يجعله في موقع الضعف والمذلة تجاه الآخرين.

وتلك وسوسة شيطانية، وعزة آثمة، تحرّض انفعالات الإنسان، وتدفعه للاسترسال مع غريزة الغضب الجامحة، وماذا ستكون النتيجة. إلا زيادة التورط في الخصومات والوقوع في مأزق العداوات؟ ويصبح الإنسان بعدها في موقع ضعف حقيقي. بينما لو اعتصم بالحلم وكظم الغيظ للحظات لوفّر على نفسه عناءً طويلاً، واكتسب عزاً حقيقياً.

لذلك يقول الرسول صلى الله عليه وآله فيما روي عنه: إن العفو يزيد صاحبه عزاً فاعفو يعزكم الله[٢].

---

(١) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٢ ص٤٠٠.

(٢) المصدر السابق ج٦٨ ص٤١٩.

ويعتبر الرسول ﷺ ضبط الإنسان لانفعالاته علامة على القوة والشجاعة، يقول ﷺ فيما يروى عنه: ليس الشديد بالصّرعه إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب.

وخرج ﷺ يوماً وقوم يدحرون حجراً فقال ﷺ: أشدكم من ملك نفسه عند الغضب، وأحلمكم من عفا بعد المقدرة[1].

إن خلافات وصراعات كثيرة تحدث في المجتمع بسبب الحساسية المفرطة تجاه بعض الكلمات أو التصرفات، وإن عداوات ضارة يتورط فيها الإنسان لاستجابته لبعض الإثارات والاستفزازات.

فلنحذر هذه المزالق، ولنتسلح بشجاعة الحلم للهروب من عناء وأخطار العداوات التي لا تستحق أن ينشغل بها الإنسان.

---

(١) المصدر السابق ج٧٤ ص١٤٨.

الارتياب مدخل إلى العداوة

انطباعات الإنسان عن الآخرين، ورؤيته لهم، تـؤثر علـى علاقتـه بهـم، وتعاملـه معهـم. فالانطبـاع الجيـد عـن شـخص يشـكل أرضـية للاقتراب منه، وصنع العلاقة معه، بينما الرؤية السلبية تجاه أي شخص تخلق حاجزاً نفسياً يحول دون الثقة به والانفتاح عليـه، وربمـا تتطـور إلى دافع للخلاف والعداوة.

وتتشكل انطباعات الإنسان عن الآخرين من خلال ما يسـمعه أو يلحظه من مواقفهم وتصرفاتهم.

بيد أن كل موقف أو ممارسة تصدر من أحد، غالباً ما تحتمل أكثـر من تفسير إيجابي وسلبي، فحتى الأعمال المصنّفة ضمن قائمـة الأعمـال الصالحة، يمكن التشكيك في دوافع وبواعث القيام بها، فتكون مصـدراً لانطباع سيئ.

ولأن الإنسان ليس له سبيل إلى القطع والجزم بنوايا الآخرين، ولا يعلم على وجه اليقين دوافع وملابسات كل مواقفهم وتصرفاتهم، فـإن التفسيرات والانطباعات التي تنقدح في ذهنـه عـنهم تبقـى مجـرد ظنـون واحتمالات.

فالتفسير الإيجابي ينتج ظناً حسناً بينما التفسير السلبي يعـني ظنـاً

سيئاً. وهكذا تتراوح انطباعات الإنسان عن الآخرين بين حسن الظن وسوء الظن.

إن حسن الظن يمنح الإنسان رغبة واندفاعاً نحو الآخرين، ويجعله أكثر قدرة على صنع العلاقة معهم، وعلى العكس من ذلك فإن سوء الظن يخلق نفوراً من الآخرين وتحفظاً تجاههم، وقد يكون مدخلاً إلى العداوة والخصام.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«من لم يحسن ظنه استوحش من كل أحد»[1].

«سوء الظن يفسد الأمور ويبعث على الشرور»[2].

«من حسن ظنه بالناس حاز المحبة منهم»[3].

الارتياب كمسلك:

الارتياب من الريب، وهو بمعنى الشك مع التهمة[4] بأن يشك الإنسان في نوايا الطرف الآخر، ويتهمه بسوء في مقاصد أعماله وتصرفاته. وهذا الشك والاتهام إنما يحصل في نفس الإنسان، لأنه يعلم بوجود النزعات الشريرة، ويدرك أن بعض المظاهر البراقة قد تخفي وراءها أهدافاً خبيثة، وبالتالي فهو لا يستطيع أن يخدع نفسه وينظر إلى جميع الأمور والتصرفات ببراءة وثقة.

---

(١) التميمي: عبد الواحد الآمدي/ غرر الحكم.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ابن منظور: لسان العرب.

وحتى لو قرر إنسان أن يكون بسيطاً ساذجاً يتعامل مع الجميع بثقة واطمئنان، ودون أي حذر أو شك، فإنه سيتعرض لصفعات ونكبات من بعض من منحهم ثقته، تجعله يعيد النظر في ثقته المطلقة بالناس.

إذاً فليس المطلوب من الإنسان أن يكون ساذجاً لا يأخذ الاحتمالات الأخرى بعين الاعتبار، وحتى لو طُلب منه ذلك فهو غير ممكن، لأن ورود الخواطر والظنون على ذهن الإنسان ليس أمراً اختيارياً.

لذلك ذهب أكثر العلماء المفسرين في تفسير قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾[1] إلى أنّ « المراد بالاجتناب عن الظن: الاجتناب عن ترتيب الأثر عليه كأن يظن بأخيه المؤمن سوءاً فيرميه به، ويذكره لغيره، ويرتب عليه سائر آثاره، وأما نفس الظن بما هو نوع من الإدراك النفساني فهو أمر يفاجئ النفس لا عن اختيار، فلا يتعلق به النهي، اللهم إلا إذا كان بعض مقدماته اختيارياً »[2].

لكن الخطر الحقيقي يكمن في أن يصبح الارتياب وسوء الظن مسلكاً عاماً للإنسان، بحيث ينظر إلى كل الناس بنظّارة سوداء، ويشكك في كل أحد وكل شيء.

وهي حالة مرضية يصاب بها البعض، فيفقد الثقة فيمن حوله، وقد تتفاقم هذه الحالة فيسيء الظن حتى في ربه وخالقه كما يحدثنا القرآن الكريم عن بعض المشركين والمنافقين: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ

---

(١) سورة الحجرات الآية١٢.

(٢) الطباطبائي: السيد محمد حسين/ الميزان في تفسير القرآن ج١٨ ص٣٢٧.

السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾[1].

وتحدثنا الروايات عمن ساورتهم الظنون السيئة تجاه رسول الله ﷺ وهو أقدس وأطهر إنسان من البشر، أخرج البخاري عن عروة بن الزبير: أن الزبير كان يحدّث: أنّه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدرا، إلى رسول الله ﷺ في شِرَاج من الحرَّة -أي مسايل الماء في المدينة- كانا يسقيان به كلاهما، فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اِسقِ يا زبير ثم أرسل إلى جارك» فغضب الأنصاري، فقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك؟ فتلوّن وجه رسول الله ﷺ [2].

وذات يوم وقف أحد الأشخاص أمام مرجع ديني وعالم جليل محقق هو الشيخ مرتضى الأنصاري رحمه الله وكان يزور الإمام علياً عليه السلام في الروضة الحيدرية، ويقرأ زيارة الجامعة الكبيرة بصوت يسمع، فجابهه ذلك الشخص قائلاً: إلى متى ترائي في عملك؟ فأجابه الشيخ برحابة وابتسام: وأنت أيضاً اِئت بمثل هذا الرياء[3].

الاستغراق في الارتياب:

إذا كان قلب الإنسان مفتوحاً أمام مختلف الخواطر والظنون، فترد عليه دون اختيار منه، إلا أن للحالة الفكرية والنفسية وللمحيط الاجتماعي، أثراً في تحديد نوعية تلك الخواطر والظنون، أو لا أقل في تعزيز نوعية معينة منها.

فهناك عوامل عديدة تدفع الإنسان للاستغراق في الارتياب تجاه

---

(١) سورة الفتح الآية٦.

(٢) البخاري: محمد بن إسماعيل/ صحيح البخاري- حديث رقم ٢٧٠٨ كتاب الصلح.

(٣) الشيرازي: السيد محمد/ من أخلاق العلماء ص٩ الطبعة الأولى ١٩٩٧م- بيروت.

الآخرين، وتفقده توازنه في النظر إليهم وتفسير أعمالهم وتصرفاتهم، ومن أبرزها:

١ ـ ضعف الوازع الديني: فالقلب المتصل بالله تعالى، والذي يستشعر حضوره ورقابته، لا يختزن الظنون السيئة ولا يحتفظ بها أو ينميها في جوانحه، حتى وإن خطرت على صفحته، بل يطردها ويكنس آثارها في نفسه بذكر الله تعالى وبالوعي السليم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[1].

والطائف هو الذي يطوف حول الشيء، فكأنّ وساوس الشيطان تدور حول فكر الإنسان وقلبه، لتأخذ موقعها فيه، لكن الإنسان المتقي يتذكر ربه والقيم والمبادئ الصحيحة، ويحاكم تلك الوساوس على أساسها، فيمتلك البصيرة والرؤية السليمة، التي يتجاوز بها الأوهام والظنون. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حسن الظن من حسن العبادة»[2].

ويقول الإمام علي عليه السلام:

«أفضل الورع حسن الظن»[3].

«لا إيمان مع سوء الظن»[4].

٢ ـ مرآة الذات: غالباً ما ينظر الإنسان للآخرين من خلال ذاته،

---

(١) سورة الأعراف الآية٢٠١.

(٢) السجستاني: أبو داود سليمان بن الأشعث/ سنن أبي داود ـ كتاب الأدب ـ حديث رقم ٤٩٩٣.

(٣) التميمي: عبد الواحد الآمدي/ غرر الحكم.

(٤) المصدر السابق.

فإذا ما وجد نفسه يقوم ببعض الأعمال الصالحة بباعث مصلحي نفعي، فإنه قد يفترض نفس الحالة في الآخرين، وإذا كان يمارس بعض التصرفات الخاطئة، ضمن ظرف معين، ثم رأى آخرين في نفس الظرف، فسيعتقد أنهم يفعلون ما فعل. وعلى العكس من ذلك صاحب الذات الطيبة، والنوايا السليمة، فإن أول ما يتبادر إلى ذهنه حسن الظن بالآخرين.

يقول الإمام علي عليه السلام: «الرجل السوء لا يظن بأحد خيراً لأنه لا يراه إلا بوصف نفسه»[1].

ويقول عليه السلام في كلمة أخرى: «الشرير لا يظن بأحد خيراً لأنه لا يراه إلا بطبع نفسه»[2].

وينقل عن أحد العلماء الصالحين أنه استغرب حينما أخبر عن سارق سطا على أحد المنازل قرب الفجر متسائلاً: متى أنهى صلاة الليل حتى وسعه الوقت للسرقة؟

ويقول مثل شعبي: كلٌ يرى الناس بعين ذاته.

٣ـ أجواء السوء: العناصر المنحرفة السيئة تجد نفسها معنية بتتبع العثرات والأخطاء التي تصدر من هذا وذاك، لتبرر لذاتها الانحراف، وحتى تتوجه الأنظار إلى أخطاء غيرهم، بدل التركيز عليهم، وأيضاً للتخفيف من وقع انحرافاتهم في الوسط الاجتماعي، ما دام غيرهم يشاركهم فيها.

يقول الإمام علي عليه السلام: «ذوو العيوب يحبّون إشاعة معائب الناس

---

(١) التميمي: عبد الواحد الآمدي/ غرر الحكم.

(٢) المصدر السابق.

ليتسع لهم العذر في معائبهم»[1].

كما تجد هذه الفئة نفسها في مواجهة مع المؤمنين الصالحين، فتسعى لتشويه سمعتهم، والتشكيك في نواياهم.

لذلك فإن من يقترب من هذه الأجواء السيئة، يتأثر بالإشاعات التي تدور فيها، وتتسرب إليه الظنون السيئة تجاه الآخرين الأبرياء، يقول الإمام علي عليه السلام: «مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار»[2].

وقد نجد مثل هذه الحالة بين الاتجاهات المختلفة، فإذا كانت هناك فئة متدينة ذات نشاط وفاعلية اجتماعية، فإن الفئة الأخرى التي ليس لها دور ولا نشاط، قد تشعر بنوع من الحرج داخل نفسها وأمام الآخرين، ولدفع هذا الحرج فإنها تبحث عن أخطاء العاملين المصلحين، وتضخم الهفوات، وتشكك في سلامة طويتهم، واستقامة مسيرتهم، وذلك يخلّف أثراً على نفوس المحيطين بهذه الفئة، والقريبين من أجوائها، فيصبح لديهم شيء من التحفظ والارتياب تجاه الفئة العاملة التي تخدم قضايا الدين والمجتمع.

٤ـ الميل للمشاكسة: الإنسان المهتم بكسب محبة الآخرين، يحرص على توفير فرص الانفتاح عليهم والاقتراب منهم، لذلك يربي نفسه على التعاطي الإيجابي مع الآخرين، بدءاً من النظر إليهم، والتفسير لأعمالهم ومواقفهم، عدا الحالات التي يتأكد من عدم صلاحها.

أما الإنسان المعقد، والذي يميل إلى المشاكسة والمنازعة، فإنه يرمق الآخرين دائماً بنظرات الشك والريب، ليبرر بذلك مشاكسته لهم،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧١ ص١٩٧.

وإبداء الإساءة تجاههم.

الانطلاق من سوء الظن:

أسوأ ما في الارتياب أنه يصبح مدخلاً ومعبراً إلى التجاوزات العدوانية على الآخرين، فهو قد ينتج فتوراً في العلاقة أو قطيعة تامة، كما قد يتحول من مجرد ظن وارتياب داخل نفس الإنسان، إلى افتراء على الجهة التي تعلق بها، حيث يشيع الإنسان ظنونه وشكوكه لدى آخرين، وبالتالي فإنه ينال من سمعة ذلك الطرف، ويشوّه شخصيته، ويصنع عليه جواً من الدعاية المضادة، كل ذلك اعتماداً على ظن مجرد ودون إثبات أو دليل، فيجد الطرف الآخر نفسه في قفص الاتّهام، ومحاطاً بالشكوك والتساؤلات، وكما قال الشاعر:

قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً   فما اعتذارك من قول إذا قيلا[1]

وقد تتطور الأمور إلى أكثر من ذلك اعتداءً وإساءة، ونزاعاً وفتنة. يقول الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: « فإن الشكوك والظنون لواقح الفتن، ومكدرة لصفو المنائح والمنن »[2].

لذلك تؤكد التعاليم الإسلامية على اجتناب سوء الظن، وعدم جواز ترتيب أي أثر عليه في التعامل مع الآخرين.

فالفقهاء يذكرون في فتاواهم أن أي شك ينتابك فيمن كنت واثقاً من عدالته، فإن ذلك الشك لا قيمة له بل تستصحب الحالة السابقة، ولست مكلفاً بالفحص، فإذا قلدت مرجعاً دينياً لعلمك باجتماع شرائط التقليد فيه، ثم شككت في زوال شيء من المواصفات، فإن

---

(١) ابن عقيل: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ـ شاهد رقم ٧٢.

(٢) القمي: الشيخ عباس/ مفاتيح الجنان ـ مناجاة المطيعين لله.

عليك أن تبقى على تقليده حتى يتوفر لك العلم، وليس الظن أو الشك.

و كذلك لو كنت تصلي جماعة خلف إمام تثق بعدالته، ثم طرأ لك ظن أو شك في بقائه على العدالة، فإنك لا تبالي بذلك الظن و الشك، و تستمر في البناء على عدالته و الصلاة خلفه.

أصالة الصحة:

هناك قاعدة تعتبر من أشهر القواعد الفقهية المتداولة بين الفقهاء، ويتمسك بها في معظم أبواب الفقه أو كلها، وقد عنونها كثير منهم بعنوان « أصالة الصحة في فعل الغير ».

حول هذه القاعدة يقول الفقيه الشيخ ناصر مكارم:

« إن حمل فعل الغير على الصحة يتصور له معان ثلاث:

أولها: الاعتقاد الجميل في حقه، وترك سوء الظن به، بأن لا يضمر المسلم لأخيه ما يزري به ويشينه، ويعتقد أنه لم يفعل سوءاً عن علم وعمد وإن صدر منه ذلك خطأً أو نسياناً إن الشارع الحكيم يأمر بتحصيل الاعتقاد الحسن في حق المسلمين ونفي اعتقاد السوء عنهم، لما فيه من المصالح التي لا تحصى، كجلب اعتماد المسلمين بعضهم ببعض، ورفع الضغائن عنهم، ودفعاً لما في سوء الظن والاعتقاد من التفرقة والتباعد واختلال النظام وإثارة الفتن بينهم، كما هو ظاهر لمن تدبر.

ثانيها: ترتيب آثار الحسن الفاعلي عليها، أي المعاملة مع فاعله معاملة من أتى بفعل حسن، وعدم المعاملة معه معاملة من ركب أمراً قبيحاً، من حسن العشرة معه، والركون إليه فيما يركن على من لم يُر منه قبيح.

ثالثها: ترتيب آثار الفعل الصحيح الواقعي على فعله، بمعنى فرض عمله صحيحاً واقعاً، و في نفس الأمر »[1].

أما النصوص الدينية التي تحذر الإنسان المسلم من الانزلاق في مزالق الارتياب، وتوجهه إلى التفكير والتعامل الإيجابي مع الآخرين، والبحث عن أفضل الاحتمالات والتفاسير لتصرفاتهم وممارساتهم، هذه النصوص كثيرة جداً، وعلى بعضها اعتمد الفقهاء في تأصيل قاعدة أصالة الصحة.

جاء عن أم المؤمنين عائشة عن رسول الله ﷺ: « من أساء بأخيه الظن فقد أساء بربه »[2].

وعنه ﷺ: « اطلب لأخيك عذراً فإن لم تجد له عذراً فالتمس له عذراً »[3].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: « ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه، ولا تظنّنّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً »[4].

الانفتاح و المصارحة:

ماذا يفعل الإنسان إذا ألحّ على قلبه ظن سلبي تجاه إنسان آخر؟ وكيف يستطيع أن يواجه ذلك الخاطر السيء؟

قد يصعب عليه تجاهل شك سيطر على ذهنه، وهو في ذات

---

(١) الشيرازي: ناصر مكارم/ القواعد الفقهية ج١ ص١١٤ الطبعة الثالثة ١٤١١هـ قم.

(٢) الهندي:علي المتقي/كنز العمال ـ حديث رقم ٧٥٨٧.

(٣) المجلسي:محمد باقر/بحار الأنوار/ج٧٢ ص١٩٤.

(٤) الكليني: محمد بن يعقوب/الأصول من الكافي ج٢ ص٣٦٢.

الوقت لا يرغب في الاستمرار مع مفاعيل الظن السوء.

إن الوعي السليم والتفكير الموضوعي يفرض على الإنسان هنا الانفتاح على الشخص المعني ومصارحته بما يدور في نفسه حوله، لإعطائه الفرصة لتوضيح موقفه، إن كان له مبرر أو مسوّغ وتشجيعه على التراجع عن خطئه إن كان مخطئاً.

يقول المفكر الفرنسي روجيه ميل:

إنني لا أستطيع اجتناب الشك، ما دام كل إنسان يتميز، أول ما يتميز، بواقع أنه حامل سر لولاه لما تحلى بوجود صميمي إطلاقاً. وينجم عن أنني أنا نفسي مما يمكن أن يطاله الشك، ولذا فإنني لا أستطيع ألا أشك في الآخرين. فما السبيل إلى الخلاص من هذا الدرب المسدود؟ ليس ثمة غير سبيل واحد: سبيل الاعتراف للآخر بالشك الذي ينتابني بصدد قوله وعمله. وهذا الاعتراف بالشك يستطيع وحده إعادة الحوار ومنحه صحة وصدقاً. ولا شيء ينم عن احترام الشخص الإنساني مثل أن يقال له: أحسب أنك   ذلك أنني أسلم نفسي على هذا المنوال إلى الآخر، وأعترف بدوري بأنني موضع ارتياب ممكن أيضا. وهذا يكفي حتى نبلغ كلانا درجة صدق أسمى[1].

ما أحوجنا إلى الشفافية والوضوح، وأن يكون الانفتاح والمصارحة هو السبيل لمعالجة تحفظاتنا وإشكالاتنا على بعضنا بعضاً، بدل أن نعيش في ظل أجواء ملبّدة بغيوم الشكوك والظنون، وأن تتضرر علاقاتنا الاجتماعية بتأثير حالات الارتياب والافتراء.

---

(١) ميل: روجيه/ المواقف الأخلاقية ص٩٣ـ٩٤ ترجمة الدكتور عادل العوا/ الطبعة الأولى ١٩٨٧م/ منشورات عويدات/ بيروت ـ باريس.

التحاسد نتاج وتكريس للتخلف

نعرف جميعاً أهمية سلامة الجسم وعافيته، وندرك كم تسبب الإعاقة والأمراض الجسمية من متاعب وعراقيل في حياة الإنسان، لكن الأشد أهمية هو صحة النفس وسلامتها، فإعاقات الجسم وأمراضه يمكن تحملها والتكيّف معها، كما يمكن تجاوز تأثيراتها ومضاعفاتها الحياتية عبر تنمية وتفعيل سائر المواهب والقدرات المتعددة التي يمتلكها الإنسان، فكم من معاق أو مبتلى بمرض مزمن قطع أشواط النجاح في هذه الحياة، وحقق إنجازات تفوق بها على الأصحاء. وفي قائمة العلماء والعظماء أسماء لامعة كثيرة لمعلولين وفاقدين لبعض أعضائهم أو حواسهم.

لكن المعاق في نفسيته بعاهة أو مرض فتّاك تتحول حياته إلى جحيم وشقاء، فهو لا يهنأ ولا يسعد في حياته، ولا يستطيع التعايش والانسجام مع الآخرين. بالطبع هناك فارق أساس هو أن إعاقات الجسم قدر مفروض على الإنسان، خارج إرادته واختياره، بينما عاهات النفس ضمن سيطرته وفي نطاق إرادته وقدرته، وإلا لما استحق عليها الذم والتوبيخ، والتعرض للجزاء والعقاب.

ومن الأمراض النفسية الخطيرة ما يشعل نار العداوة، ويؤجج

لهيبها، ويجعل الإنسان في صدام دائم مع الآخرين، فيشقى هو بذلك أولاً، ويسبب المشاكل والمتاعب لمن يقع عليه أذاه.

وفي رأس قائمة تلك الأمراض الفتاكة: الحسد.

التنافس الإيجابي:

حينما يرى الإنسان أشخاصاً ناجحين في الحياة، يتمتعون بنعم وإمكانات، ويحققون إنجازات ومكاسب، فإن ذلك ينبغي أن يدفعه إذا كان سليم القلب معافى النفس إلى أن يتطلع هو إلى مثل تلك الحالة، ويسعى إلى تحقيقها في ذاته، عبر العمل وبذل الجهد، وبالتوجه إلى الله تعالى المالك لكل شيء والمعطي لكل خير.

فالإنسان من حبه لذاته، يريد حيازة الخير لها، ويرغب أن يكون متفوقاً على من حوله، وذلك تطلع مشروع، واندفاع طبيعي، يساعد على إعمار الأرض، وتسخير ثروات الكون، وتفجير طاقات الإنسان، وتحقيق كماله وتقدمه.

إن التسابق نحو خير الدنيا والآخرة مطلوب، يقول تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[3]. والتنافس في ميدان العمل مرغوب، يقول تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[4].

---

(١) سورة الحديد الآية٢١.

(٢) سورة البقرة الآية١٤٨.

(٣) سورة الواقعة الآية١٠ـ١١.

(٤) سورة المطففين الآية٢٦.

وهناك فقرات في العديد من الأدعية المأثورة توجه الإنسان إلى أن يطلب من ربه التفوق والتقدم على الآخرين، وأن ينال الأكثر من عطاء ربه ونعمه. كما ورد في الدعاء المشهور الذي يرويه كميل بن زياد عن الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام: « واجعلني من أحسن عبيدك نصيباً عندك وأقربهم منزلة منك وأخصهم زلفة لديك». وفي دعاء مكارم الأخلاق المروي عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام نقرأ مايلي: « وبلّغ بإيماني أكمل الإيمان، واجعل يقيني أفضل اليقين، وانته بنيتي إلى أحسن النيات، وبعملي إلى أحسن الأعمال».

هكذا يتطلع المؤمن إلى الأكمل والأفضل والأحسن، ويرغب في التفوق والتقدم على الآخرين. وإذا رأى الإنسان ناجحين ومتمكنين ومتنعمين في الحياة المادية أو المعنوية فإن ذلك يثير عنده حافز التطلع، وأن يحقق مثل ما حققوا وينال مثل ما نالوا، دون أن يعني ذلك الكراهية لهم أو الاستياء من تنعمهم، وهو ما تطلق عليه النصوص الدينية عنوان « الغبطة» كما يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: « إن المؤمن يغبط ولا يحسد»[1].

وذلك يعني أن يكثّف الإنسان نشاطه، ويزيد فاعليته، ليسابق الآخرين، ويحرز ما أحرزوا، فالتطلع المجرد، والتمني الفارغ لا ينتج ولا يثمر شيئاً.

الاقتراب من الناجحين:

إن النجاح والتفوق في أي مجال من المجالات، هو ثمرة صفات وسمات معينة، كما ينتج خبرات وتجارب نافعة، فإذا ما رأيت إنساناً

---

(١) المجلسي: محمد باقر/بحار الأنوار ج٧٠ ص٢٥٠.

ناجحاً متفوقاً في جانب يحظى باهتمامك فعليك أن تقترب منه، لتدرس تجربته، وتستفيد من خبرته، ولترى كيف يمكنك أن تكسب من خلال حالته المتقدمة.

وهذا يستلزم أن تنفتح عليه نفسياً، فتكون نظرتك له إيجابية، فهو عضو في أسرتك البشرية، ومجتمعك الإنساني، ونجاحه وتفوقه في ميادين الخير والعطاء يصب في صالح التقدم العام، وما قد يكون لديه من مواصفات طيبة وعوامل ساعدته على النجاح تستحق الإشادة والتقدير.

هذه النظرة الإيجابية تشجعك على الاقتراب منه، وما ينتج عنها من سلوك وتعامل سيدفعه هو الآخر للتعاطي معك، وتلك هي أرضية الصداقة والعلاقة النافعة المثمرة.

الحسد عدوان بلا مبرر:

في الحالة السوية المستقيمة يكون وجود المتفوقين والناجحين حول الإنسان، دافعاً إلى الطموح والتطلع، وسبباً لتوثيق العلاقة والصداقة، أما في الحالة المرضية فإنه يشعل نار العداوة والبغضاء، ويؤدي إلى الفتنة والخطر. حيث يزعج الإنسان ويسخطه وجود شخص متميز عليه في محيطه، فينظر إليه نظرة عدائية، ويتمنى زوال النعمة عنه، وقد يسعى لإيقاع الضرر به، ويطلق على هذه الحالة مصطلح «الحسد».

والحسد ـ كما عرّفه اللغويون وعلماء النفس والأخلاق ـ هو تمني زوال نعمة الغير. جاء في لسان العرب: الحسد أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول عنه وتكون له دونه. وجاء في «معجم علم النفس والطب النفسي» بأنه: «مشاعر غير سارة تتولد عن الرغبة في

تملك ما يمتلكه شخص آخر مثل الثروة أو الجمال أو المكانة»[1].

يصف الإمام علي عليه السلام الحسد بأنه: «شر الأمراض» وأنه «رأس الرذائل». فهو إساءة واعتداء غير مبرر على الغير بلا جرم اقترفه أو ذنب فعله، إلا أنه حظي بنعمة، أو نال مكانة وأحرز مكسبا، يقول الإمام علي عليه السلام: «الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له»[2].

فهابيل ابن آدم لم تصدر منه أي إساءة تجاه أخيه قابيل، إلا أن الله تعالى تقبل قربانه دون قربان أخيه قابيل، بسبب إخلاصه وتقواه، فثارت حفيظة قابيل، وامتلأت نفسه حنقاً وغيظاً، حسداً لأخيه على مكانته عند الله، واندفع ليرتكب أول جريمة قتل في تاريخ البشر ،بتصفية حياة أخيه هابيل. يقول تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ   فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[3].

ورد عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام أنه قال: «الحسد رائد السوء ومنه قتل قابيل هابيل».

ويوسف بن يعقوب لم يكن له أي ذنب يستوجب عداء إخوته له إلا ما خصه به أبوه من المحبة والودّ، لتميزه على سائر إخوانه بصفات الكمال ومؤهلات النبوة، فقادهم حسدهم إلى الكيد به والتآمر عليه بتلك الطريقة البشعة التي سجل القرآن الكريم تفاصيلها لتبقى عظة

---

(١) جابر: د.جابر عبد الحميد ـ كفافي: د.علاء الدين/معجم علم النفس والطب النفسي ج٣ ص١١٤٩ دار النهضة العربية/ القاهرة ١٩٩٠م.

(٢) المجلسي: محمد باقر/بحار الأنوار ج٧٠ ص٢٥٦.

(٣) سورة المائدة الآية ٢٧ـ٣٠.

وعبرة للأجيال: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[1].

آفاق التقدم:

فرص التقدم المادي والمعنوي متوفرة ومتاحة أمام كل إنسان، ونعم الله تعالى مبذولة للجميع ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[2]. ومن تراه متمتعاً بنعمة من النعم، فتلك حصته التي لا تؤثر على نصيبك ولا تلغي دورك، فشمّر عن ساعدك، وابذل جهدك، لتنال من فرص الحياة بمقدار ما تسعى وتتحرك. وابحث عن نقاط قوتك، وفجر مواهبك الخاصة، فقد تكون مرشحاً لدور آخر وتفوق جديد تمتاز به عن الآخرين.

لكن مرض الحسد الخبيث ينحرف بتفكير الإنسان عن هذا المنحى السليم، لينحدر به إلى منزلق المشاعر العدائية، وليخلق في نفسه حالة الإحباط، فيبقى متخلفاً يراوح مكانه، يعيش التأزم النفسي، ويتكرس لديه العجز والفشل. الآخرون يتقدمون ويواصلون زحفهم، فيحقد عليهم لأن تقدمهم يكشف تخلفه، وتكاملهم يبدي نقصه، وبدل أن يقتحم ميدان الجد والاجتهاد، وساحة التنافس والسباق، ينشغل باجترار الأحقاد، وتمني فشل الآخرين، والعمل من أجل إعاقة تحركهم وعرقلة مسيرهم.

لذلك يصف الإمام علي عليه السلام الحسد بأنه سجن لروح الإنسان،

---

(١) سورة يوسف الآية ٨ـ٩.

(٢) سورة الإسراء الآية ٢٠.

من أن تنطلق في الأفق الرحيب يقول عليه السلام: «الحسد حبس الروح» وفي عبارة أخرى يصفه بأنه «دأب السفّل» أي مهمة الفاشلين الفاقدين للهمة العالية. من هنا فإن «الحسود لا يسود» كما يقول الإمام علي عليه السلام.

فالحاسد لا يفكر كيف يتقدم هو؟ بل يصبح همه الأول في الحياة سقوط الآخرين وزوال نعمهم. يقول الإمام علي عليه السلام: «الحاسد لا يشفيه إلا زوال النعمة» و «الحاسد يفرح بالشر ويغتم بالسرور» و «الحاسد يرى أن زوال النعمة عمن يحسده نعمة عليه».

غضب على القدر:

وإذا كانت بعض النعم والامتيازات تصل إلى الإنسان دون كسب منه، كالصفات الخلقية،والانتماء العائلي، أو الإمكانات التي يرثها من أرحامه، أو المواقع القيادية الرسالية، فإنها تقدير إلهي، وقسمة ربانية، فلماذا ينزعج الحاسد من ذلك؟ إنه حينئذٍ يعترض على تقدير ربه وحكمته، يقول تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[1]. وفي الحديث القدسي عن الله عز وجل: «فإن الحاسد ساخط لنعمي، صادٌ لقسمي الذي قسمت بين عبادي»[2]. وعلى حد تعبير الإمام علي عليه السلام: «الحسود غضبان على القدر».

وقديماً قال أحد العرفاء:

ألا قل لمن كان لي حاسداً   أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في فعله   إذا أنت لم ترض لي ما وهب

---

(١) سورة النساء الآية٥٤.

(٢) المجلسي: محمد باقر/بحار الأنوار ج٧٠ ص٢٤٩.

تحطيم للذات:

الحسد مرض خطير فتّاك تبدأ مضاعفاته المدمرة على نفس حامله أولاً، حيث يعيش مأزوماً محبطاً قلقاً، يرى الأمور والأحداث من خلف نظارة سوداء، وفي الوقت الذي ينعم فيه الآخرون بإنجازاتهم ومكاسبهم، يبقى هو يجتر الهموم والحسرات، فلا يرتاح ولا يهنأ بدنياه، وهو في آخرته أخسر وأشقى. يقول الإمام علي عليه السلام: «لله در الحسد فما أعدله بدأ بصاحبه فقتله» و« الحسد مطية التعب» و« ثمرة الحسد شقاء الدنيا والآخرة» و «ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد» و «الحسد لا يجلب إلا مضرة وغيظاً يوهن قلبك ويمرض جسمك».

أعراض اجتماعية:

قد يكون الحسد مرضاً فردياً محدوداً يبتلى به بعض الأفراد من المجتمع، فيصطلون بنار أضراره وشقائه، وقد يكون ظاهرة سائدة في بعض المجتمعات، تبرز أعراضه ومضاعفاته على مستوى العلاقات بين أفراد المجتمع وفئاته.

ولعل من أبرز أعراض الحسد كظاهرة مرضية اجتماعية، هو ما يتجلى في طريقة التعاطي والتعامل مع الكفاءات والقدرات من أبناء المجتمع، ففي الوضع الصحي السليم تلقى الكفاءة والطاقة، في أي مجال من المجالات العلمية أو الأدبية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، ترحيباً من أوساط المجتمع، وتشجيعاً وإشادةً، ومساعدةً ودعماً، يدفعها إلى المزيد من التقدم والعطاء، والنمو والظهور. أما في الحالة المرضية، فإن نظرات التنكر والتجاهل، وإثارة الشكوك والارتياب، وتطلب العثرات والأخطاء، هذه النظرات تلاحق أي كفاءة تبرز، وأي قدرة تظهر، من أبناء المجتمع. وهذا عرض وأثر يدل على انتشار

مرض الحسد في النفوس.

وغالباً ما تعشش هذه الحالة المرضية في المجتمعات المتخلفة والمقهورة، فبروز الكفاءة يذكر الآخرين بنقصهم، وذلك أمر يزعجهم، فيتمنون عدم ظهور أي كفاءة « لأن البلية إذا عمت طابت ». كما أن التخلف والقهر يكرس الأنانية الجوفاء الملتوية في نفس الإنسان، فينظر إلى المتميزين والمتفوقين وكأن تقدمهم جاء على حسابه، وأنه الأولى والأحق منهم بتلك المكاسب والإنجازات التي أحرزوها، نتيجة لتضخم الذات، وانتفاخ الأنا، دون سعي أو حركة.

وتلك هي الأرضية التي تنبت منها العداوات، وتفرخ فيها الأحقاد، وتجد كفاءات المجتمع نفسها محاطة بأجواء العداء والصراع، مشغولة بتخطي العراقيل والعقبات المصطنعة في طريقها.

وما يواجه هذه الحالة هو الوعي الحضاري والتربية الأخلاقية، ليدرك أبناء المجتمع دور وأهمية أي كفاءة تبرز في تعزيز مكانتهم جميعاً، وشق طريق التقدم أمامهم، وأن ظهور أي طاقة عالماً أو خطيباً أو أديباً أو مهندساً أو تاجراً أو موظفاً كبيراً أو رجل أعمال .. هو مكسب لكل المجتمع.

وساحة التنافس والاجتهاد مفتوحة للجميع، ونعم الله واسعة وخيراته كثيرة، فلماذا التحاسد؟ ولماذا التباغض؟

الفصل الثاني

في ثقافة الاختلاف

اختلاف الرأي لا يوجب العداوة

الآخر المخالف: كيف ننظر إليه؟

ذوو الرأي ومسؤولية الحوار

اختلاف الرأي لا يوجب العداوة

قد تعادي شخصاً لأنه أساء لك أو اعتدى على حق من حقوقك، وهذا موقف مفهوم مشروع، وقد تعادي شخصاً لأنه ينافسك أو يزاحمك على مصلحة من المصالح أو مكسب من المكاسب، وهو أمر وارد وقابل للنقاش، أما أن تعادي شخصاً لأن له رأياً يخالف رأيك في قضية علمية أو دينية أو سياسية، فذلك موقف لا يسوّغه لك الشرع ولا العقل.

الرأي: شأن خاص

والرأي كما في اللغة: هو الاعتقاد، والجمع آراء. أي ما اعتقده الإنسان وارتآه. تقول رأيي كذا، أي اعتقادي. والاعتقاد والعقيدة: ما عقد عليه القلب والضمير، وما تدين به الإنسان واعتقده.

وبذلك فالرأي من شؤون قلب الإنسان، وهو من أخص خواصه الذاتية الشخصية، فلا يحق لأي أحد أن يتدخل في هذا الشأن بالقسر والقوة، كما أن التدخل في هذه المنطقة المحرّمة لا يجدي ولا يؤثر، فإذا ما حاولت أي قوة أن تفرض على إنسان رأياً أو تمنعه من رأي، فإنها لن تستطيع إلا إخضاعه ظاهراً، أما قراره الداخلي، وإيمانه القلبي، فيستعصي على الفرض والإكراه.

لذلك فإن الله سبحانه وتعالى ينفي إمكانية الإكراه على الدين وينهى عنه يقول تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾[1].

ورائع جداً ما قاله العلامة الطباطبائي حول هذه الآية الكريمة قال: وفي قوله تعالى ﴿لا إكراه في الدين﴾، نفي الدين الإجباري، لما أن الدين وهو سلسلة من المعارف العلمية التي تتبعها أخرى عملية يجمعها أنها اعتقادات، والاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار، فإن الإكراه إنما يؤثر في الأعمال الظاهرية والأفعال والحركات البدنية المادية، وأما الاعتقاد القلبي فله علل وأسباب أخرى قلبية من سنخ الاعتقاد والإدراك، ومن المحال أن ينتج الجهل علماً، أو تولد المقدمات غير العلمية تصديقاً علمياً، فقوله ﴿لا إكراه في الدين﴾، إن كان قضية إخبارية حاكية عن حال التكوين أنتج حكماً دينياً ينفي الإكراه على الدين والاعتقاد، وإن كان حكماً إنشائياً تشريعياً كما يشهد به ما عقبه تعالى من قوله ﴿قد تبين الرشد من الغي﴾، كان نهياً عن الحمل على الاعتقاد والإيمان كرها، وهو نهي متك على حقيقة تكوينية، وهي التي مر بيانها أن الإكراه إنما يعمل ويؤثر في مرحلة الأفعال البدنية دون الاعتقادات القلبية[2].

من هذا المنطلق فإن التظاهر بالكفر إذا كان ناتجاً عن ضغط وإكراه، فهو مشروع ولا يناقض الإيمان المستقر في القلب، يقول تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾[3] ويعبّر عن ذلك في الاصطلاح الشرعي بالتقيّة، والتي هي: التحفظ عن

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(٢) الطباطبائي: السيد محمد حسين/ الميزان في تفسير القرآن ج٢ ص٣٤٧.

(٣) سورة النحل الآية ١٠٦.

ضرر الغير بموافقته في قول أو فعل مخالف للحق، اقتباساً من قوله تعالى: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾[1].

فالرأي والاعتقاد لا يغيّره الضغط والقهر، والتظاهر بالتخلي عن ذلك الرأي لا يزيله من قرارة نفس الإنسان، بل قد يزداد ثبوتاً ورسوخاً، بدافع التحدي ورد الفعل.

كما ينقل عن قصة العالم الإيطالي «غاليليو غاليلي ١٥٦٤ـ ١٦٤٢م» والذي اعترضت الكنيسة المسيحية وعلماء اللاهوت على آرائه العلمية حول حركة الأرض وأنها ليست مركز العالم، ولا هي ساكنة، بل تتحرك وتدور يومياً، وأن الشمس هي المركز، واتهم بالهرطقة والخروج عن الدين، وجلبوه إلى روما للمثول أمام محكمة التفتيش، فاعتقل في الحال، ثم استنطق وحقق معه بعد شهرين، وهدد بالتعذيب، ثم أصدرت المحكمة حكمها بأن يعلن «غاليليو» التوبة، ويتنكر لآرائه العلمية، فحضر أمام المحفل الكنسي، وركع على ركبتيه وراح يقرأ ما أجبر على قوله، لكنه عند خروجه من المحكمة عقّب قائلاً: «ومع ذلك فهي تدور» يقصد الأرض[2].

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى المجال للإنسان في هذه الحياة ليمارس حرية الرأي والمعتقد، فلم يفرض عليه الإيمان به عنوة، بل أنار له طريق الهداية، وترك له حرية الاختيار ﴿إنا هديناه السبيل. إما شاكراً وإما كفورا﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢٨.

(٢) حوحو: المهندس أسامة/ مآثر العلماء ص٢٥٢ الطبعة الأولى ١٩٩٤م مؤسسة بحسون بيروت.

(٣) سورة الإنسان الآية ٢.

﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[1].

ولم يسمح الله تعالى حتى لأنبيائه أن يصادروا من الإنسان حرية رأيه واختياره، فهم يعرضون رسالة الله على الناس، دون فرض أو إكراه ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾[2] ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[3].

وإذا كان للرأي هذه الخصوصية في نفس الإنسان، والموقعية في شخصيته، فكيف يحق لك أن تتدخل في هذه الخصوصية، وأن تعادي إنساناً أو تسيء إليه لأنه يمارس شأنه الخاص به في أعماق نفسه؟

إننا نعترف للآخرين بخصوصيتهم في سائر المجالات، كالأكل والشرب مثلاً، فلو رأيت إنساناً يعادي شخصاً لأنه لا يرغب في نوع معين من الطعام، أو يعزف عن لون آخر، لاستنكرت عليه ذلك، على اعتبار أن هذه الرغبات شأن خاص لا علاقة للآخرين بها، والحال أن الرأي آكد خصوصية، وأشد التصاقاً بنفس الإنسان.

اجعل نفسك ميزاناً:

وأنت حينما تعادي زيداً أو عمراً لأنه يخالفك في هذا الرأي أو ذاك، هل ترضى أن يعاديك الآخرون على هذا الأساس؟ إنك لا تقبل أن يسيء إليك أحد لأنك تحمل رأياً معيناً، حيث تعتبر ذلك شأناً خاصاً بك، وتعتقد بأحقية رأيك، وعليك أن تعرف أن الآخرين يرون لأنفسهم ما ترى لنفسك.

---

(١) سورة الكهف الآية ٢٩.

(٢) سورة الغاشية الآية ٢١ـ٢٢.

(٣) سورة يونس الآية ٩٩.

وفي وصيته الخالدة لابنه الحسن عليه السلام يقول الإمام علي عليه السلام: «يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تَظلِم كما لا تحب أن تُظلم، وأحسِن كما تحب أن يُحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، وارضَ من الناس ما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قلَّ ما تعلم، ولا تقل مالا تحب أن يقال لك»

إنها قواعد أساسية هامة في تعامل الإنسان مع الآخرين، ترجعه إلى ضميره ووجدانه، قبل أي شيء آخر.

احتمال الخطأ والصواب:

يبالغ بعض الناس في التعصب لآرائهم، ويفرطون في الثقة بها، بحيث لا يفسحون أي مجال ولا يعطون أي فرصة للرأي الآخر، فهم على الحق المطلق دائماً، وغيرهم على الباطل في كل شيء.

وينتج عن هذه الحالة -غالباً- موقف التطرف والحدّية تجاه المخالفين، وحتى في الاختلاف عند بعض القضايا الجزئية، والأمور البسيطة الجانبية.

إنه خلق يخالف تعاليم الإسلام الذي يربي أبناءه على الاستماع لمختلف الآراء ومحاكمتها على أساس الدليل والمنطق، لا التعصب والانفعال. يقول تعالى: ﴿فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعونَ أحسنه﴾[1].

وأكثر من ذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذي لا يشك في أحقية دعوته بمقدار ذرة واحدة، يخاطب المشركين بمنتهى التواضع والموضوعية

---

(١) سورة الزمر الآية ١٧ـ١٨.

قائلاً ﴿وإنّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾[1]. إنه منهج تربوي عظيم، يصوغ شخصية الإنسان على أساس احترام الآخرين، ومركزية العقل والوجدان.

والتعصب المطلق للرأي، والحدية والتشنج تجاه آراء الآخرين، يمنع الإنسان من الانفتاح على الرأي الآخر، واستماعه والاطلاع عليه، وربما كان هو الرأي الصحيح والصائب. ثم أن ذلك قد يجعل الإنسان في موقف حرج مستقبلاً إذ قد يتبين له خطأ رأيه، فكم من إنسان تراجع عن رأيه، وتغيرت قناعاته؟ وتلك حالة طبيعية قد تحصل للإنسان تجاه مختلف المسائل والقضايا.

يقول شاعر المهجر إيليا أبو ماضي:

رب فكر بان في لوحة نفسي و تجلى
خلته مني و لكن لم يقم حتى تولى
مثل طيف بان في بئر قليلاً واضمحلا
كيف وافى و لماذا فرّ مني؟ لست أدري

وقد رأينا أناساً كانوا يبالغون في التعصب لآرائهم حول بعض المسائل والأشخاص والجهات، ويعتبرون القول بهذا الرأي هو الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، أو يعتقدون أن الولاء لهذا الشخص أو لهذه الجهة هو مقياس الحق والباطل، ويعادون الناس ويناوؤنهم على هذا الأساس. لكنهم بعد فترة من الزمن تغيرت قناعاتهم وآراؤهم، مئة وثمانين درجة، مما أوقعهم في حرج مع أنفسهم وتجاه الناس.

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٤.

إن الاعتدال والوسطية هو المنهج السليم، فلا يكون الإنسان متطرفاً ولا متشنجاً حاداً في مواقفه مع الآخرين، وعلى هذا المعنى يحمل قول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»

وجميل ما قاله أحد العلماء: إن رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

تفهّم مواقف الآخرين:

حينما تعتقد أحقية رأي معين، وتجد آخرين يخالفون هذا الرأي الحق -في نظرك- فإن عليك قبل أن تتهمهم بالعناد والجحود والمروق، وأن تتخذ منهم موقفاً عدائياً، عليك أن تتفهم ظروفهم وخلفية مواقفهم.

فلعل لديهم أدلة مقنعة على ما يذهبون إليه.

أو لعلهم يجهلون الرأي الحق، لقصور في مداركهم ومعلوماتهم.

أو لعلهم يعيشون ضمن بيئة وأجواء تحجب عنهم الحقائق.

أو لعلّ هناك شبهات تشوّش على أذهانهم وأفكارهم.

وتجاه مثل هذه الاحتمالات فإن المطلوب منك هو دراسة موقف الطرف الآخر، ومعرفة وجهة نظره، والدخول في حوار موضوعي معه، ومساعدته على الوصول إلى الحقيقة.

ونشير هنا إلى ملاحظة دقيقة هي: أن الإنسان قد يؤمن برأي من الآراء، ويعتبره حقيقة واضحة، تصل إلى مستوى المسلمات والبديهيات، لأنه قد أشبع الأمر بحثاً، وانشد إليه نفسياً، وعاش ضمن

محيط قائم على أساس ذلك الرأي، فالمسألة أمامه واضحة جلية لا نقاش فيها، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للآخرين.

« إن وضوح الفكرة لدينا لا يعني أن الآخرين ينظرون إليها بنفس الوضوح، فربما كنا نتطلع إليها من خلال الجوانب المضيئة عندنا، بينما يكون عنصر الضوء غير متوفر في الجوانب الأخرى التي يعيش فيها الآخرون، لأنهم لا يملكون ما يهيىء لهم ذلك، تماماً كما يكون الصحو في بعض الآفاق مجالاً للانطلاق مع إشعاع الشمس، بينما تجعل السحب الدكناء الآفاق الأخرى في ظلام دامس. وقد يبدو هذا طبيعياً عندما نلاحظ اختلاف وجهات النظر في فهم بعض الأشياء العادية في الحياة، كنتيجة طبيعية لاختلاف العادات والظروف والأفكار. ولعل قيمة هذا الاتجاه، في ملاحظة موقعنا تجاه الآخرين، تبرز في إتاحة الفرصة لنا في الانطلاق نحو موضوعية أكثر وفهم أرحب، في سبيل تعرف وجهة النظر الأخرى، من حيث طبيعة الفكرة التي يؤمنون بها من جهة، ومن حيث طبيعة الموقف الذي يتخذونه منا، من جهة أخرى، الأمر الذي يجعلنا أكثر قدرة على الحركة بوعي، وعلى ضوء الأجوبة الصحيحة لما يرد من التساؤلات، ومعالجة القضايا المعروضة في مجالات البحث »[1].

ويربينا القرآن على هذا النهج الموضوعي حينما يتحدث عن فئآت من الرافضين لرسالات الأنبياء، بأن سبب ذلك الرفض هو الجهل وعدم العلم، كقوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾[2].

---

(١) فضل الله: السيد محمد حسين/ خطوات على طريق الإسلام ص٣٥٧ الطبعة الأولى ١٩٧٧م دار التعارف بيروت.

(٢) سورة التوبة الآية ٦.

وقوله تعالى: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾[2].

فنبي الله نوح عليه السلام في بدء رسالته يخاطب قومه مبدياً تفهمه لظروفهم التي تجعلهم يرفضون رسالته، بسبب التشويش على أذهانهم، ووجود الشبهات التي تعيق تفكيرهم، مع أنه يحمل إليهم الدعوة الصادقة، والحجة الواضحة مطالباً لهم بتجاوز تلك الحواجز ليروا الحق. يقول تعالى: ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي واتاني رحمة من عنده فعميّت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾[3].

وفي لفتة تربوية معبرة يتحدث القرآن الكريم عن بني إسرائيل بعد نجاتهم من الغرق مع نبي الله موسى عليه السلام، وطلبهم منه أن يجعل لهم أصناماً كما للمشركين أصنام!! ومع سخافة الطلب ومخالفته الواضحة للدين، إلا أن نبي الله موسى عليه السلام أرجع ذلك إلى جهلهم، ثم صار يقرر عليهم حقيقة التوحيد من جديد، يقول تعالى: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متبّر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون. قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين﴾[4].

وصلوات الله تعالى على نبينا نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وآله الذي كان

---

(١) سورة الأنعام الآية ٣٧.

(٢) سورة النجم الآية ٣٠.

(٣) سورة هود الآية ٢٨.

(٤) سورة الأعراف الآية ١٣٨ـ١٤٠.

يدعو الله تعالى لهداية قومه قائلاً: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.

مسؤولية الرأي على صاحبه:

إذا ما أصر إنسان على رأي خاطئ، ورفض قبول الحق والصواب، فإنه هو الخاسر بالدرجة الأولى، وسيدفع ثمن خطئه، ويتحمل مسؤولية رأيه، وما على المهتدين للحق إلا إرشاده وتوضيح الحقائق له، ثم هو بعد ذلك له كامل الحرية والاختيار، فإن استجاب فقد نفع نفسه، وإن أبى فهو المتضرر.

فمن يريد الذهاب إلى السوق لكنه يسلك طريقاً معاكساً فإن مسؤوليتك تنتهي عند حدود تبيين الطريق له، فإذا ما أصر على سلوك الطريق المعاكس، فإنه لن يصل إلى السوق التي يريدها، والطبيب مهمته أن يقدم العلاج للمريض لكنه إذا لم يلتزم بالعلاج، فسيدفع الثمن من صحته.

ولا داعي لكي يزعج الإنسان نفسه، ويدخل في معارك العداء مع الآخرين لأنهم لم يقبلوا الرأي الذي يراه حقاً.

إن البعض يأخذهم الحماس لمبادئهم وآرائهم بحيث يضغطون على أعصابهم ويتأزّمون نفسياً ويتجاوزون الحدود في التعامل مع الناس، وكأن لهم الوصاية والسيطرة على أفكار الآخرين وتوجهاتهم، وهذا خطأ فظيع.

لقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على هداية قومه، إلى حد أنه كان يجهد نفسه أكثر من اللازم، فجاءه التوجيه من الله سبحانه: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾[1]. أي مهلك نفسك.

---

(١) سورة الشعراء الآية ٣.

ومرة أخرى يخاطبه الباري جلّ وعلا: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾[1]. أي ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسّرك على أن يؤمنوا[2].

وفي القرآن آيات كثيرة تؤكد على أن مهمة النبي والداعية تنتهي عند حدود التبليغ والإرشاد، ولا يصح تجاوز هذه المهمة إلى حد ممارسة الوصاية والضغط على الآخرين. يقول تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾[4].

وهناك روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تؤكد على تجنب العداء والخصومة مع الآخرين على أساس الاختلاف في الدين والرأي كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «إياكم والخصومة في الدين»

وورد عنه في رواية أخرى: «فلا تخاصموا الناس لدينكم فإن المخاصمة ممرضة للقلب، إن الله قال لنبيه صلى الله عليه وآله: إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. وقال: أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. ذروا الناس فإن الناس أخذوا عن الناس».

---

(١) سورة طه الآية ٢ـ٣.

(٢) الشوكاني: محمد بن علي بن محمد/ تفسير فتح القدير ج٣ ص٤٤٣ المكتبة العصرية ـ بيروت ١٩٩٧م.

(٣) سورة النساء الآية ٨٠.

(٤) سورة آل عمران الآية ٢٠.

إن هذه التوجيهات الربانية والمفاهيم القرآنية، وسيرة الأنبياء والأئمة عليهم السلام تردع الإنسان عن أن يكون حاداً متشنجاً مع من يخالفه في الدين والرأي، أو أن يجعل اختلاف الرأي سبباً ومبرراً للعداء والخصومة.

العداوة تمنع التأثير:

إذا كنت مخلصاً لأفكارك، ومتحمساً لنشرها، واستقطاب الآخرين باتجاهها، فإن الطريق لذلك هو الانفتاح على الآخرين، وخلق جو من الاحترام والودّ معهم.

فوجود علاقة لك بهم، وتواصل بينك وبينهم، يتيح لك الفرصة لعرض أفكارك وآرائك عليهم، أما القطيعة والعداء، فإنها تسلب منك هذه الإمكانية، وتفقدك الرغبة والاندفاع في تكرار محاولة التأثير عليهم.

من ناحية ثانية فإن حالة العداء وما تفرزه من سلوكيات منفرة تحول بين الطرف الآخر وبين الإقبال والاستجابة.

فالعاقل الواعي الذي يريد خدمة أفكاره، وأن تشق طريقها إلى قلوب الناس، هو الذي يمتلك سعة الصدر ورحابة الأفق، ولا ينفعل تجاه الرأي المخالف، حتى ولو تعامل معه الآخرون بشكل سيئ، فإنه يمارس أعلى درجات ضبط النفس، والتحكم في الأعصاب، بحيث يقابلهم باللطف والإحسان، فيمتص التشنجات، ويستوعب الاستفزازات.

وبهذه المنهجية الأخلاقية يدفعهم لإعادة النظر في موقفهم تجاهه، ويشجعهم على الانفتاح على أفكاره، مما قد يغيّر قناعاتهم، ويستقطبهم إلى جانبه وإلى صف رأيه.

ويؤكد القرآن الكريم تأثير أسلوب الرفق والإحسان وأنه يساعد على تغيير المواقف والنفوس لصالح الدعوة والرسالة، في قوله تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾[1].

فالمنهجية الحسنة القائمة على أساس اللطف والاحترام والود مع الآخرين، تختلف في نتائجها عن المنهجية السيئة المعتمدة على الشدة والقطيعة والعداء، فالأولى تفتح الطريق أمام التأثير والكسب، بينما الثانية تسبب النفور وتزيد هوّة التباعد.

لكن المنهجية الحسنة لا تتوفر إلاّ لمن يروّض نفسه على الصبر تجاه الإساءات والاستفزازات، ويمتلك نصيباً عظيماً من الأخلاق الفاضلة.

وينهى الله سبحانه عباده المؤمنين من أن يتحدثوا مع المخالفين لهم في الدين إلا بأفضل أسلوب، وأحسن طريقة، رعاية لمشاعرهم يقول تعالى ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾[2].

لقد واجه رسول الله ﷺ في بداية الدعوة معارضة ومخالفة عنيفة من قبل المشركين، ولكنه تغلب على كل ذلك بأخلاقه العظيمة ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ ولولا ذلك الخلق الرفيع لما تمكن الرسول ﷺ من هداية ذلك المجتمع الجاهلي الغارق في الفساد والتخلف، يقول تعالى: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾[3].

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٤ـ٣٥.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٦.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

وهكذا فإن على من يعتبرون أنفسهم حملة للحق، وذوي الفكر الصحيح والرأي الصائب، أن يتحلّوا بمصداقية أخلاقية في التعامل مع الناس، وخاصة المخالفين لهم في المذهب أو الرأي أو الموقف، فإن القطيعة والعداوة والإساءة، تخالف تعاليم الدين، وتصادم توجيهات العقل، وتشوّه دعوة وفكرة أصحابها، وتنفّر الناس منهم.

منهج الإسلام وسيرة السلف:

من الظواهر المؤسفة في بعض الأوساط الدينية، سوء التعامل مع المخالفين في الدين أو المذهب أو الاتجاه، حتى أصبحت الغلظة والفظاظة والتجهم والتشدد سمة من سمات التدين عند هؤلاء، وأصبح حتى الاختلاف على بعض المسائل الجزئية الاجتهادية سبباً للقطيعة والعداء.

وهذا مخالف لنهج الإسلام، ولسيرة السلف الصالح، من أئمة أطهار وصحابة أخيار. فالقرآن الكريم يشجع المسلمين على حسن التعامل والبر بالكافرين غير المحاربين والمعتدين يقول تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾[1].

« أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينصبوا لقتالكم في الدين، والإخراج من دياركم. فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن

---

(١) سورة الممتحنة الآية ٨ـ٩.

صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا تبعة».

وفي سيرة رسول الله ﷺ أروع الصور الإنسانية، وأسمى المواقف الأخلاقية في التعامل مع الكافرين من يهود ونصارى ومشركين، ليس في العهد المكي فقط، وإنما في العهد المدني وبعد أن جاء نصر الله والفتح.

وفي معالجة نقدية لظاهرة التشدد عند بعض المتدينين تجاه مخالفيهم كتب الباحث السعودي الدكتور عبد الله الحامد مقالة جميلة تحت عنوان «هل ينبغي أن نكون أكثر سلفية من السلف؟» نقتطف منها ما يلي: «ويبدو تعامل الخليفة الراشد، علي بن أبي طالب مع الخوارج، نموذجاً واضحاً، لا ليل فيه ولا ضباب، لاسيما أنه خليفة راشد مجتهد، يدرك علاقة القاعدة بالنموذج، وعلاقة النص بالتطبيق.

ولعل من المفيد -قبل استنباط التعريف من موقفه- أن نتذكر ما اشتمل عليه مذهب الخوارج من مخالفات واضحات، لأمور قطعية الثبوت والدلالة:

أولها: أنهم اعتبروا مرتكبي كبائر الذنوب كفاراً، مخلدين في جهنم، إن لم يتوبوا قبل الممات، وهذا الاعتقاد مخالف لنصوص الكتاب والسنة.

ثانيها: أنهم يردون الأحاديث الواردة، عن طريق عثمان وعلي رضي الله عنهما، ومن شايعهما.

ثالثهما: أنهم كفروا الصحابة المشهود لهم بالجنة، كعثمان وعلي، وطلحة والزبير، وكفروا أصحاب الجمل، والحكمين ومن رضي بحكمهما، وكثيراً من الصحابة.

رابعها: أنهم استحلوا دماء المسلمين وأموالهم، إلا من خرج معهم واستحلال دم المسلم محرم بالكتاب والسنة والإجماع. وفي ذلك

إخلال كبير خطير بالقطعيات.

وعلى رغم كل هذه الانحرافات الفكرية والسلوكية، لم يكفرهم الخليفة، ولا جمهور الصحابة، على رغم أن تكفيرهم، هو ظاهر الأمر عند عدد آخر، من الفقهاء والعلماء، فقد وردت أحاديث صحيحة في ذمهم، منها أنهم «يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية» وكان يمكن لعلي أن يستثمر الأحاديث التي توحي بكفرهم، لأن مروق الإنسان من الدين، كما يمرق السهم من الرمية، ظاهره الخروج من الدين.

ولكن علياً كان أوعى وأدرى بأحكام التكفير، وكان على درجة فريدة من إنصاف الأعداء والخصوم، فهذا الرجل الذي عاقب الذين غلوا في حبه حتى ألهوه، لم يكفر الذين كفروه وقاتلوه، وإنما قاتلهم لأنهم بغاة محاربون، ولم يقاتلهم على اعتبار أنهم كفار، ولما سئل أكفار هم؟ قال: «من الكفر فروا»، لما سئل أمنافقون هم؟ قال: «المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا» ولما قيل له: [إذن] من هم قال: «إخواننا بغوا علينا».

وبدعة الخوارج تعتبر أشد أنواع الابتداع في الإسلام، كما قال أحمد بن حنبل، رحمنا الله وإياه: «لا أعلم قوماً [أي من أهل الابتداع] شراً من الخوارج».

وإنما اعتبر الخوارج غير كفار، لأن بدعهم بدع تأويل، وليست بدع إنكار، لأن تأويل القطعيات «ما لم تكن من أصول الدين، كالصلاة والحج» غير مكفر، أما إنكارها من دون تأويل فهو مكفر.

وموقف علي وجمهور الصحابة، من انحراف الخوارج الفكري، يضرب نموذجاً إسلامياً فذاً، في التسامح مع المخالفين، وبذلك يتمظهر

الإسلام أكثر إنصافاً، وإقراراً للحقوق الإنسانية، من دعاة الحرية العلمانية، الذين قال أحد زعمائهم الفرنسيين «سان جوست» «لا حرية لأعداء الحرية»، أي لا ديموقراطية لأعداء الديموقراطية.

دستور الدولة الإسلامية ـ كما نمذجه علي بن أبي طالب ـ يعترف بكل فئة موجودة في الساحة، حتى الذين لا يعترفون به يعترف بهم، حتى الذين يريدون استئصاله وإسقاطه، مثل دعاة الاستئصال في الفكر الإسلامي «كقدامى الخوارج والمعتزلة، والمتأثرين بردود أفعالهم»، كالديانات الأخرى، التي لا تعترف بالإسلام.

وهذا يدل أيضاً على سعة أفق الإسلام وسماحته، تجاه أهل البدع، وتجاه الأفكار والآراء، وتجاه النقد بالكلمة الحرة. وأنه لا يجيز النيل من أجسادهم، ولا أعراضهم ولا أموالهم، ولا يجيز التضييق عليهم، أو حبسهم حتى يتوبوا، بل ولا يجيز حرمانهم من حقوقهم المدنية، ولا سيما الحقوق الوظيفية والمالية، فقد أعلن علي للخوارج، وهو يخطب على المنبر: أن لهم حقاً في بيت المال، لن يمنعهم إياه، «وهم يقاطعون الخطبة بتكفيره»!.

ويأتي تطبيق علي ﵁، كالشمس قوة وإضاءة، للنص النظري، للاعتبارات الآتية:

١ ـ أنه ثاني الأربعة الكبار من الصحابة «عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس»، الذين برزوا في الفقه العام والقانوني.

٢ ـ أنه حاكم الدولة، الذي يدرك العلاقة بين النص والتطبيق.

٣ ـ أنه أطول الخلفاء الراشدين خبرة عملية، فقد عاش معهم تحت ظلال الوحي، وتطبيق الرسول ﷺ، ثم كان مستشاراً كبيراً للخلفاء الثلاثة من قبله.

٤ ـ أنه فعل ذلك، وهو في حال الصراع، التي تختلط فيها الأشياء، وتجر الناس إلى الحدة والشدة، ويصعب على الناس العاديين أن يتجردوا من الذاتية، حين يتحرون الموضوعية، وكان بإمكانه أن يستل سيف التعزيز، وأن يمتطي مطية المصالح المرسلة، وأن يفعل ما يقول بعض الفقهاء العباسيين: يجوز قتل ثلثي الناس لاستصلاح الثلث الباقي!.

ولكنه يدرك أن النجاح والذكاء السياسي، لا ينبغي أن يتما على جثة الصدقية الأخلاقية، لأن الأشخاص يموتون، والمبادئ العادلة المستنيرة تحيا، لكي تحيا بها الأمم، فكان هذا الموقف تجسيداً حياً، للديموقراطية الإسلامية».

وأخيراً:

فإن اختلاف الرأي ظاهرة طبيعية في حياة البشر، ولا يصح أن تكون سبباً للتعادي والتخاصم، بل ينبغي أن تستثمر لصالح تكامل المعرفة، واكتشاف الحقيقة، وإثراء الساحة الثقافية.

• وأفضل خدمة تقدمها للرأي الذي تؤمن به، حسن تعاملك مع الآخرين، لتقدم بسلوكك الطيب أنموذجاً مقبولاً لأفكارك، ولتكون بسيرتك الصالحة داعية لآرائك، أما أسلوب العداوة والتشدد، فهو يسيء إلى التوجه الذي تنتمي إليه أولاً، وإليك ثانياً.

الآخر المخالف: كيف ننظر إليه؟

الإنسان المتدين وهو يعتقد بأحقية دينه، وصواب مذهبه، كيف ينظر إلى الآخرين المختلفين معه في الدين أو المذهب؟

لاشك أن الحق واحد لا يتعدد، فإذا آمن الإنسان بدين أو مذهب على أنه حق وصواب، فلابد وأن يكون ما يخالفه عنده باطلاً وخطأً، وحتى إذا كان هناك نقاش حول التخطئة والتصويب في الفروع الشرعية، حيث ذهب بعض العلماء إلى القول بالتصويب، بمعنى أن حكم الله تعالى في المسألة الاجتهادية هو ما اهتدى إليه المجتهد باجتهاده، وليس هناك حكم معين من قبل، فكلما يصل إليه اجتهاده فهو الصواب، بينما يرى أغلب العلماء، أن لله تعالى أحكاماً معينة في كل مسألة اجتهادية، فمن هداه اجتهاده إلى ذلك الحكم فقد أصاب، وإلاّ فهو مخطئ. لكن قضايا أصول الاعتقاد لا يمكن أن يجري فيها هذا الاختلاف والنقاش، ولا أن يقول أحد فيها بالتصويب، فعند تعدد المعتقدات لا يقول أحد من العلماء بتصويب الجميع، كما هو الحال في المسائل الفرعية الشرعية، بل اتفقت أقوال العلماء بأن التخطئة تقع في أصول الاعتقاد، والأحكام العقلية عدا ما نسب إلى العنبري عبيد الله بن الحسن ين الحصين، قاضي البصرة (توفي١٦٨هـ) من أن كل مجتهد في الأصول مصيب أيضاً وليس فيها حق متعين. وهو قول شاذ وينقل

ابن حجر تراجع صاحبه العنبري عنه[1].

ومعنى ذلك أن كل متدين يرى أحقية دينه ومذهبه، وأن المخالفين له على خطأ وباطل في أديانهم ومذاهبهم.

بين العقائد والمعتقدين:

وإذا كانت نظرة المتدين إلى سائر الأديان والمعتقدات المخالفة لدينه ومذهبه، على أنها خاطئة وباطلة أمراً منطقياً مفهوماً، شريطة أن يكون تدينه هو قائماً على أساس الدليل والبرهان، فإن نظرته إلى المعتقدين بتلك الأديان والمذاهب، مسألة تحتاج إلى بحث وتمحيص.

ذلك أننا نجد في الساحة الفكرية والاجتماعية توجهات متباينة متناقضة، في تحديد النظر إلى الآخر المخالف دينياً أو مذهبياً، تتراوح بين التشدّد المفرط والتسامح المفرط.

ولعل من أسباب ذلك ما يلي:

أولاً: اختلاف الفهم في الموازنة والترجيح بين ما ورد في التراث الديني، من نصوص وآراء، يدفع بعضها باتجاه التشدّد تجاه المخالفين، بينما يشجّع قسم منها على المرونة والتسامح.

ثانياً: دور الظروف الخارجية من حيث موقعية المخالف ونمط العلاقة معه، فحينما يكون المخالف في موقع قوة واقتدار، ولا يمارس بطشاً وعدواناً، فإن ذلك يسهم في تشكيل صورة أفضل عنه، ويلغي مبررات التشددّ تجاهه، وعلى العكس من ذلك لو كان المخالف في

---

(١) الغزالي: أبو حامد/ المستصفى من علم الأصول ج٤ ص٣٤، تحقيق د.حمزة حافظ/ الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة.

موضع حاجة وضعف، أو كان مصدراً للقلق والأذى، فستكون صورته قاتمة كالحة.

ثالثاً: تدخل المشاعر والأحاسيس النفسية الذاتية، حيث تنطلق عند بعض المتدينين روحية الأنانية والاستعلاء، ومشاعر الحقد والانتقام، تحت مبررات دينية مذهبية.

رابعاً: وقد تصبح النظرة إلى الآخر المخالف مجالاً للمزايدات في الساحة الإعلامية والجماهيرية، فمن أجل أن يكرّس هذا الزعيم موقعيته في جمهوره، أو يحصّن هذا المرشد أتباعه ومريديه، يبالغ في تعتيم صورة الآخر المخالف. يقول الدكتور عبد الله بن ضيف الله الرحيلي الأستاذ المشارك في الحديث وعلومه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: (لعل من أوسع أبواب الخطأ في فهم طبيعة التعامل الشرعي، وفي فهم الأخلاق المتعيّنة على المسلم تجاه الكافرين، الانطلاق من الانفعالات والمواقف الشخصية، وليس من خلال النصوص والأحكام الشرعية، وبالتالي تأتي المفاهيم والكتابات في هذا الموضوع تبعاً لمواقف الأشخاص، وانفعالاتهم، وطبائعهم، وظروفهم. فهي عندئذٍ تختلف باختلاف القوة والضعف، والشدة واللين، والحماس وضده!.

والواجب أن يكون التعرف على هذا الجانب المهم من الإسلام، من خلال النصوص الشرعية، لا المواقف الشخصية، ولا ما يُمليه واقع العصر.

والواجب أن يكون ذلك من خلال الرجوع إلى النصوص كلها وفهمها وفق منهج سديد.

ومن المؤكد أنّ ما يُعّبر به بعض المسلمين عن إخلاصهم للإسلام

تجاه تعاملهم مع الكافرين من تصرفات انفعالية، يعبّرون عن الكراهية والعداء بطريقة لا يُقرّها الإسلام، يظنون أنهم ينصرون بها الإسلام، إنما هي تصرفات لا تغني عن العمل الجادّ لنصرة الدين، ولا تنوب عن خُلق الإسلام وأدبه، ولا تنمُّ عنه، ولا تغني، إنها لا تخدم الإسلام في شيء، إنما هي تشنجاتٌ وردود أفعال مخطئة..)[1].

من هنا تبرز أهمية البحث والدراسة الموضوعية لرؤية الدين في النظر إلى المخالفين. والمقصود بذلك النظر إليهم كأشخاص وأناس، وليس كمعتقدات، لأن المفترض في المسلم إيمانه بصحة معتقداته عن دليل وبرهان، مما يعني لديه عدم صحة ما يخالفها.

هل كل مخالف في النار؟

التفكير السائد عند أكثر المتدينين أنّ الجنة حكرٌ على أهل دينهم ومذهبهم، أمّا المخالفون لهم فمصيرهم الحتمي نار جهنم، ذلك أن الجنة لا يدخلها إلا أهل الحق، ولا تنجو من النار إلاّ فرقة واحدة، هي الفرقة الناجية، ويرى أهل كل دين أو مذهب أنهم هم أهل الحق والفرقة الناجية، وبقية العالم كلهم في النار.

وهذا ما نقله القرآن الكريم عن اليهود والنصارى يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

وهناك حديث متداول في أوساط المسلمين هو حديث الفرقة

---

(١) الرحيلي: د.عبد الله ضيف الله/ الأخلاق الفاضلة قواعد ومنطلقات لاكتسابها ص٢٢٣ ـ٢٢٤/ الطبعة الأولى ١٩٩٦م مطبعة سفير ـ الرياض.

(٢) سورة البقرة الآية١١١.

الناجية، حيث يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة)[1].

ورغم تحفظ كثير من العلماء من مختلف المذاهب على سند هذا الحديث، وعلى ضبط متنه، إلاّ أنه متداول، ويشكل مرجعية لدى المتدينين في نظرتهم إلى مخالفيهم في المذهب والاتجاه من المسلمين.

وقد طعن في سند الحديث ابن حزم وابن الوزير والشوكاني وتوسّع الشيخ يوسف القرضاوي في مناقشته ورده سنداً ومتناً[2].

وقال الشيخ جعفر السبحاني: (إنّ مشكلة اختلاف نصوص الحديث لا تقل إعضالاً عن مشكلة سنده، فقد تطرق إليه الاختلاف من جهات شتى، لا يمكن معه الاعتماد على واحد منها)[3].

ليس كل مخالف جاحداً:

ما يجب التنبّه له أنّ المخالفين لما نعتقده حقاً لا يمكن سوقهم جميعاً بعصى واحدة، فهناك من يتضح له الحق ولكنه يجحد ويكابر، وهناك من لم تتوفر له فرصة التعرّف على الحق والاطلاع عليه، ولو أتيحت له تلك الفرصة، وأزيحت من أمامه الشبهات والحواجز، لما تردد في قبول الحق.

---

(١) السجستاني: أبو داود/ سنن أبي داود/ حديث رقم٤٥٩٧.

(٢) القرضاوي: الدكتور يوسف/ الصحوة الإسلامية بين الإختلاف المشروع والتفرق المذموم ص٣٤ـ٣٨/ الطبعة الثالثة ١٩٩٣م مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

(٣) السبحاني: الشيخ جعفر/ بحوث في الملل والنحل ج١ ص٢٦ الطبعة الثانية ١٩٩١م/ الدار الإسلامية ـ بيروت.

وإذا كان الجاحد المعاند مستحقاً لعذاب الله وغضبه، فإن المستعدّ نفسياً وفكرياً لقبول الحق لو بلغه واتضح لديه، له حساب آخر.

إنّ أشخاصاً كثيرين يعيشون ضمن بيئة مخالفة للدين الحق، ولا تصلهم رسالة الإسلام، فهم قاصرون عن الوصول إلى الحقيقة،وقد لا يكونون مقصّرين، ولديهم قلوب صافية طيبة لا ترفض الحق، وما نسمعه عن دخول أناس جدد إلى الإسلام من أمريكيين وأوروبيين وغيرهم يؤكد هذه الحقيقة.

فمثل هؤلاء الناس غير المعاندين يتسع لهم عفو الله ورحمته وإن كانوا كفاراً، لأن الله تعالى لا يعذب أنساناً قبل إكمال الحجة عليه، يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[1] ويقول تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[2].

وينقل الشيخ المطهري عن "ديكارت" الفيلسوف الفرنسي قوله: إني لا أدعي أنّ المسيحية قطعاً أفضل دين في الأرض، ولكني أقول إنّ المسيحية هي الأفضل بالقياس إلى الأديان التي أعرفها، وقد تناولتها بالبحث والتحقيق، وليس لي أي عداء مع الحقيقة، فقد يكون هناك في أماكن أخرى من الدنيا دين يرجح على المسيحية، إنّه لا علم لي فلعل ديناً ومذهباً يوجد في إيران مثلاً هو أفضل وأحسن من المسيحية.

ويعقب الشيخ المطهري قائلاً: لو كان ديكارت صادقاً في حديثه ومستسلماً للحقيقة بالمقدار الذي يدعيه لنفسه، وقد بحث واستقصى بكل جهوده ولم يصل إلى أكثر مما وصل إليه فهو يعتبر حينئذ مسلماً

---

(١) سورة الإسراء الآية١٥.

(٢) سورة الأنفال الآية٤٢.

بالفطرة[1].

ومما يؤيد ذلك ما ورد عن محمد بن مسلم قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام جالساً عن يساره، وزرارة عن يمينه، فدخل عليه أبو بصير فقال: يا أبا عبد الله ما تقول فيمن شكّ في الله؟ فقال عليه السلام: كافر يا أبا محمد. قال: فشكّ في رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: كافر. قال: ثم التفت إلى زرارة فقال عليه السلام: إنما يكفر إذا جحد[2].

المستضعفون فكرياً:

تتحدث بعض النصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السلام عن الناس المستضعفين فكرياً، والذين تقصر مداركهم عن إدراك الحقائق، أو أن الظروف الاجتماعية التي يعيشونها تسلب منهم إمكانيات المعرفة ووسائل البحث للوصول إلى الحق، فهؤلاء يتسع لهم عفو الله سبحانه وتعالى، وهم مصداق للمستضعفين الوارد في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً. فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[3].

ويشير الإمام علي عليه السلام إلى صدق عنوان الاستضعاف على من تتعذر عليه وسائل المعرفة بقوله عليه السلام: (ولا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجة فسمعتها أذنه ووعاها قلبه)[4].

---

(١) المطهري: مرتضى/ العدل الإلهي ص٢٨١ الطبعة الثانية ١٩٨٤م مؤسسة الوفاء- بيروت.

(٢) الكليني: محمد بن يعقوب/ الكافي ج٢ ص٣٩٩.

(٣) سورة النساء الآية٩٨-٩٩.

(٤) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة -خطبة ١٨٩.

وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال حينما سئل عن المستضعفين؟: (إنهم ليسوا بالمؤمنين ولا بالكافرين، وهم المرجون لأمر الله)[1].

وفي حديث آخر يشير الإمام جعفر الصادق عليه السلام إلى أن تصنيف الناس لا يتحدد بصفة الإيمان أو الكفر، بل إن هناك مجالاً أرحب وأوسع في النظر إلى الناس، فعن الحارث عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: سألته: بين الإيمان والكفر منزلة؟ فقال: نعم، ومنازل لو يجحد شيئاً منها أكبه الله في النار: بينهما ﴿آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ وبينهما ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ وبينهما ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ وبينهما قوله: ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾[2].

وللعلامة الطباطبائي في تفسير الآية الكريمة ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ... ﴾ كلام مهم عميق نقتطف منه ما يلي: وهذا المعنى كما يتحقق فيمن أحيط به في أرض لا سبيل فيها إلى تلقي معارف الدين، لعدم وجود عالم بها خبير بتفاصيلها، أو لا سبيل إلى العمل بمقتضى تلك المعارف للتشديد فيه بما لا يطاق من العذاب، مع عدم الاستطاعة من الخروج والهجرة إلى دار الإسلام، والالتحاق بالمسلمين، لضعف في الفكر أو لمرض أو نقص في البدن أو لفقر مالي ونحو ذلك، كذلك يتحقق فيمن لم ينتقل ذهنه إلى حق ثابت في المعارف الدينية، ولم يهتد فكره إليه مع كونه ممن لا يعاند الحق ولا يستكبر عنه أصلاً، بل لو ظهر عنده حق اتبعه، لكن خفي عنه الحق لشيء من العوامل المختلفة الموجبة لذلك.

---

(١) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٦٩ ص١٦٥.

(٢) المصدر السابق ص١٦٦.

فهذا مستضعف لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً، لا لأنه أعيت به المذاهب بكونه أحيط به من جهة أعداء الحق والدين بالسيف والسوط، بل إنما استضعفته عوامل أخر سلطت عليه الغفلة، ولا قدرة مع الغفلة، ولا سبيل مع هذا الجهل.

ومن هنا يظهر أن المستضعف صفر الكف لا شيء له ولا عليه لعدم كسبه أمراً، بل أمره إلى ربه، كما هو ظاهر قوله تعالى بعد آية المستضعفين ﴿فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ورحمته سبقت غضبه[1].

سعة رحمة الله:

بعض الناس يريدون أن يحجّموا رحمة الله تعالى حسب نفسيتهم المحدودة، ونظرتهم الضيقة، فيحكمون على كل من يخالفهم في الدين أو المذهب بالحرمان من الجنة، والدخول في النار، لكن ما نعرفه من سعة رحمة الله تعالى، وواسع عفوه، يجعلنا أكثر تفاؤلاً تجاه مستقبل هؤلاء الناس، الذين خلقهم الله تعالى ليرحمهم ﴿إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[2].

والأحاديث الواردة عن النبي ﷺ وأهل بيته الكرام تعطي المسلم لو تأملها أُفقاً أرحب، ونظرة أوسع، تجاه الناس.

ورد في حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (إذا كان يوم القيامة نشر الله تبارك وتعالى رحمته حتى يطمع إبليس في رحمته)[3].

---

(١) الطباطبائي: السيد محمد حسين/ الميزان في تفسير القرآن ج٥ ص٥٣-٥٤.

(٢) سورة هود الآية١١٩.

(٣) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧ ص٢٨٧.

ومع ورود أحاديث كثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام حول فرض ولايتهم، وأنها شرط لقبول الأعمال ولدخول الجنة، إلا أنهم من جهة أخرى يؤكدون أن المسألة ترتبط بقضية الجحود والعناد، أي أن من اتضحت له حقيقة ولايتهم، وأتيحت له فرصة التعرف على حقهم، ثم أعرض وكابر، فهو مستحق للعذاب والحرمان، أما في غير هذه الصورة فهو مشمول برحمة الله تعالى، كما تتسع له جنته ورضوانه.

يروي الإمام جعفر الصادق عن آبائه عن علي عليه السلام: (إن للجنة ثمانية أبواب: باب يدخل منه النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منه شيعتنا ومحبّونا، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت)[1].

وعن زرارة قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: أصلحك الله أرأيت من صام وصلى واجتنب المحارم وحسن ورعه ممن لا يعرف ولا ينصب؟ فقال عليه السلام: إن الله يدخل أولئك الجنة برحمته[2].

وجاء في حديث أن كامل بن إبراهيم المدني جاء ليسأل الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه هل يدخل الجنة إلا من عرف معرفتك وقال بمقالتك؟ فأجابه ابنه الإمام محمد المهدي عليه السلام مستنكراً قوله: إذن والله يقلّ داخلها[3].

وروي عن الإمام علي عليه السلام: ما هلك من الأمة إلا الناصبين

(١) المصدر السابق ص١٥٩.

(٢) المصدر السابق ص١٦٢.

(٣) المصدر السابق ص١٦٣.

والمكابرين والجاحدين والمعاندين، فأما من تمسك بالتوحيد، والإقرار بمحمد والإسلام، ولم يخرج من الملة، ولم يظاهر علينا الظلمة، ولم ينصب لنا العداوة، فإن ذلك مسلم مستضعف يرجى له رحمه الله[1].

منهج الأنبياء والأئمة:

لا يمكن المزايدة على الأنبياء والأئمة عليهم السلام في الإخلاص للدين والحرص عليه، فإذا أردنا الانطلاق من الدين والمبدأ في النظر إلى المخالفين لنا في الدين أو المذهب، فعلينا أن نقرأ منهج المعصومين عليهم السلام، وطريقتهم في التعاطي مع الآخرين، ونستلهم منها الموقف الشرعي السليم. ومن خلال الآيات القرآنية والاحاديث والآثار الواردة يمكننا أن نستنتج المفاهيم التالية:

أولاً: كانوا يلتمسون العذر غالباً لأقوامهم بأنهم جاهلون لا يعلمون الحقائق، وفي حالات محدودة جاء التصريح بأن المخالفين ينطلقون من العناد والمكابرة والجحود.

وفي ذلك درس بليغ لنا بأن لا نتسرع في إساءة الظن بالآخرين، وأن نتفهم ظروفهم التي تجعلهم غير مطلعين على الحقيقة.

لقد آذى المشركون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشد الأذى، ولكنه كان يدعو لهم بالهداية، ويعتذر عنهم بجهلهم. قال القاضي عياض في الشفاء: وروي أنه لما كسرت رباعيته وشجّ وجهه يوم أحد، شقّ ذلك على أصحابه شديداً، وقالوا: لو دعوت عليهم؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: اني لم أُبعث لعاناً ولكني بعثت داعياً ورحمة. اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون. ثم قال القاضي: انظر ما في هذا القول من جماع الفضل، ودرجات

---

(١) المصدر السابق ص١٧١.

الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم، حتى عفى عنهم، ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم، فقال: اللهم اغفر أو اهد، ثم أظهر سبب الشفقة بقوله: (لقومي) ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال: (فإنهم لا يعلمون)[1].

وأخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله قال: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[2].

ثانياً: النظر إلى المخالفين بإشفاق ومحبة وحرص على مصلحتهم، وليس من خلال حالة كره أو حقد أو انتقام، ولو تأملنا الصورة التالية التي ينقلها القرآن الكريم عن مخاطبة النبي شعيب عليه السلام لقومه، وكيف كانت كلماته مفعمة بالحنان والشفقة عليهم، وإظهار الحرص والرغبة في إنقاذهم من الأخطار والمهالك، يقول تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ ﴿وَيَاقَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ. فِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[3].

ثالثاً: الاجتهاد في تبليغ الرسالة، وتوضيح الحقيقة للآخرين

---

(١) القمي: الشيخ عباس/ سفينة البحار ج٢ ص٦٨١/ الطبعة الاولى الجديدة ١٤١٤هـ دار الاسوة ايران.

(٢) البخاري: محمد بن اسماعيل/ صحيح البخاري حديث رقم٣٤٧٧.

(٣) سورة هود الآية٨٤/٨٩/٩٠.

المخالفين.

إن كثيراً من المتدينين ممن يرسمون في أذهانهم صورة قاتمة عن الآخرين، ويحكمون عليهم بالنار والعذاب، إنما يخلقون بينهم وبين الآخرين حاجزاً نفسياً، يمنعهم من الانفتاح عليهم، والسعي لهدايتهم، وتبيين ما يعتقدونه حقاً لهم. وقد يبررون لأنفسهم التقاعس والتقصير في العمل بهذه النظرة السوداء التشاؤمية تجاه الآخرين.

ذوو الرأي ومسؤولية الحوار

لكي تتجاوز شعوبنا حالة التنافر السائدة في علاقات فئآتها وتجمعاتها مع بعضها البعض، وتصل إلى مستوى الانفتاح والتواصل والتعاون، لا بد من إطلاق عملية حوار مفتوح جاد، يستهدف التعرف المباشر من كل جهة على الأخرى، بدل الاعتماد على المعلومات غير الدقيقة والشائعات والمواقف المسبقة، ويتوخى اكتشاف القواسم المشتركة، والتركيز على المصالح العليا للأمة، ومواجهة التحديات الخطيرة للمجتمع والوطن.

فبينما تفرض العولمة نفسها على الحياة، ويتحول العالم إلى قرية صغيرة واحدة، تتضاءل فيها تأثيرات الحدود الجغرافية والسياسية، لا يصح لنا أن نحافظ على هذه الحواجز والجدران المعززة بالعوازل، لكي تفصل بين أبناء هذه الأمة، تحت عناوين قومية أو مذهبية أو حزبية أو قبلية.

ومن الملفت للنظر أن تكون خطوط الاتصال بين كل فئة منا والعالم أكثر منها مع أبناء محيطها وشركائها في الدين والوطن.

والحوار بعد ذلك فريضة يلزمنا بها ديننا، الذي يأمرنا بالتثبت في أحكامنا وآرائنا، ومواقفنا تجاه الآخرين، فلا يصح لنا أن نكوّن صورة

للآخر عن طريق الظنون والشائعات ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[1]. ولا أن نستقي معلوماتنا عن بعضنا البعض من مصادر وجهات غير موثوقة تزرع بيننا الفتن والعداوات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[2].

والمسلم الملتزم هو من يتقصد الاطلاع على وجهات النظر، ويسعى للتعرف على الآراء، بحثاً عن الحقيقة ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي.الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[3].

وواضح أن استخدام صيغة ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ في الآية الكريمة بدل يسمعون، تشير إلى نوع من العناية والقصد.

ولكن.. من يطلق عملية الحوار؟ وعلى من تقع مسؤولية المبادرة إلى تفعيله؟

يبدو لي أن المفكرين وذوي الرأي من أبناء الأمة، هم الشريحة التي يجب أن تتحمل هذه المسؤولية، فلأنهم أصحاب رأي وفكر يفترض أن يكونوا أكثر إدراكاً لعمق التحديات التي تعيشها الأمة وأقدر على إدارة الحوار بموضوعية وإخلاص.

كما أن موقعيتهم تتيح لهم إمكانية التأثير في أوساط الفئات التي ينتمون إليها، وتوجهات الرأي العام.

---

(١) سورة الإسراء الآية٣٦.

(٢) سورة الحجرات الآية٦.

(٣) سورة الزمر الآية ١٧ـ١٨.

فلو بادر بعض ذوي الرأي من كل جهة للانفتاح على أمثاله من الجهة الأخرى، ومناقشة موضوع العلاقات الداخلية بين الجهات والفئآت، وكيفية تأطيرها في الإطار الإسلامي والوطني، لقطعت مجتمعاتنا شوطاً متقدماً على طريق الوحدة والانسجام والتعاون، ولوفرّنا على أمتنا خسائر القطيعة والنزاع والاحتراب.

ونقصد بذوي الرَأي أصحاب الكفاءة العلمية والفكرية ممن يمارسون دور التوجيه والتأثير في المجتمع كعلماء الدين، والمفكرين المنتجين، والقيادات الاجتماعية.

إن تقاعس ذوى الرأي الغيورين على مصلحة الدين والوطن عن المبادرات الإيجابية، وعن رفع الصوت عالياً بالدعوة إلى الانفتاح والحوار، هو الذي يفسح المجال ويترك الساحة فارغة لأصوات دعاة الكراهية والمتطرفين من الجهات المختلفة.

ونتساءل هنا لماذا تنعدم في الساحة ـ أو تقل ـ مبادرات ذوي الرأي في الانفتاح على بعضهم البعض، والتحاور من أجل رأب الصدع، والاهتمام بالمصلحة العامة، متجاوزين انتماءاتهم الفكرية والاجتماعية؟

وفي الجواب على هذا التساؤل يمكن القول: إن هناك مجموعة من الأسباب والعوامل تضعف توجه ذوي الرأي وتقلل مبادراتهم باتجاه الحوار ومن أبرزها مايلي:

١/ ضعف الاهتمام بالشأن العام:

إذا وفقّ الله تعالى الإنسان لنصيب من العلم والمعرفة، وقدر من الوعي والخبرة، فإنه بنفس الدرجة يكون مسؤولاً عن توظيف ذلك في

خدمة المجتمع والمصلحة العامة، لكن بعض ذوي الرأي يعيشون همومهم الخاصة، ويسعون لتأمين مصالحهم الذاتية. وإذا كان الحوار والانفتاح على الآخر لا يحقق كسباً شخصياً، فإنه لا يكون من دائرة اهتماماتهم، ولا ضمن سلّم أولوياتهم.

لقد طرحت على أحد علماء الدين، موضوع علاقته مع عالم آخر، يختلف معه في التوجه، ويعمل معه في نفس الساحة الاجتماعية، فأجابني قائلاً: لا أجد نفسي بحاجة للعلاقة معه، فأموري ماشية وأوضاعي مرتبة!!

وهذا هو منطق الكثيرين من علماء الدين أو المفكرين في مجتمعاتنا، إنه لا يشعر بحاجة شخصية، ولا يتوقع مكسباً ذاتياً، من خلال الانفتاح على الآخر والحوار معه. ولكن ماذا عن المصلحة العامة؟

إنك قد لا تكون محتاجاً للآخر على المستوى الذاتي الشخصي، وهو قد لا يكون محتاجاً لك كذلك، ولكن الوطن والمجتمع يحتاج إلى تلاقح الآراء، وتظافر الجهود، وسد ثغرات الفتن والنزاع، وترسيخ الوحدة الوطنية والاجتماعية.

٢/ مشاعر الاستعلاء أو الرهبة:

حينما يكون ذو الرأي في موقع متقدم، من حيث القوة أو المنصب، أو الإمكانيات المادية والاجتماعية، فإنه قد يهيمن عليه شعور بالاستعلاء والتفوق على أمثاله من ذوي الرأي الذين لا يصلون إلى مستوى مكانته وقدرته، فيعزف عن الانفتاح عليهم، ويترفع عن الحوار معهم، لأنه لا يجدهم أنداداً، ويرى أن عليهم الخضوع له والإقرار بأحقيته وأفضليته.

وقد لا يكون ذو الرأي شخصياً في موقع قوة، لكن انتماءه إلى فئة تكون في موقع القوة، يكفي لمنحه ذلك الشعور بالاستعلاء.

وعلى العكس من ذلك فقد يكون الشعور بالضعف والرهبة من الطرف الآخر، هو الآخر سبباً للعزوف عن الانفتاح والحوار، فمن لا يكون واثقاً من نفسه أو من علمه ورأيه، فإنه يتلكأ في التواصل مع الآخرين، خوفاً من ظهور ضعفه، أو رهبة من احتوائهم له. أو أن يفتح ذلك منافذ للتأثير على جمهوره وقاعدته.

٣/ التصنيف والأحكام المسبقة:

في أجواء التشنج والخصام، وحينما تتضخم مسائل الخلاف، يصنّف الناس بعضهم بعضاً تصنيفاً حاداً، ويصدرون على بعضهم البعض أحكاماً غيابية قاسية، فهذا كافر، وهذا مشرك، وهذا مبتدع، وهذا فاسق، وهذا رافضي، وهذا علماني، وهذا عميل!!! وحتى تقليد المراجع تحوّل إلى سبب للتصنيف ينظر إلى الناس من خلاله، هذه التصنيفات الحادّة، وما تستبطنه من أحكام قاسية، ثم التسرع في وضع الناس ضمن هذه الخانات والقوالب الضيقة، كل ذلك يمثل حالة متخلفة تهدم الثقة بين أبناء الأمة، كما لا تنسجم مع سماحة الإسلام، وأُفقه الأخلاقي الواسع.

وأين هؤلاء المتسرعون في تكفير الناس واتهامهم في دينهم من قول الله تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [1].

---

(١) سورة النساء الآية٩٤.

يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية:

« وقد دلت الآية على حكمة عظيمة في حفظ الجامعة، وهي بث الثقة والأمان بين أفراد الأمة، وطرح ما من شأنه إدخال الشك لأنه إذا فتح هذا الباب عسر سده، وكما يتهم غيره فللغير أن يتهم من اتهمه، وبذلك ترتفع الثقة، ويسهل على ضعفاء الإيمان المروق، اذ قد أصبحت التهمة تظلُّ الصادق والمنافق، وأنظر معاملة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المنافقين معاملة المسلمين. على أن هذا الدين سريع السريان في القلوب فيكتفي أهله بدخول الداخلين فيه من غير مناقشة، اذ لا يلبثون أن يألفوه، وتخالط بشاشته قلوبهم، فهم يقتحمون على شك وتردد فيصير إيماناً راسخاً، ومما يعين على ذلك ثقة السابقين فيه باللاحقين بهم »[1].

وينقل ابن ابي شيبة في مصنفه أنه: سئل علي عن أهل الجمل ـ الذين تمردوا عليه فحاربهم ـ قال: قيل: أمشركون هم؟ قال: من الشرك فروا. قيل: أمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا. قيل: فما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا[2].

وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام ما يؤكد مضمون هذه الرواية حيث يروي عن أبيه عليه السلام: أن علياً عليه السلام لم يكن ينسب أحداً من أهل حربه إلى الشرك ولا إلى النفاق، ولكنه كان يقول: هم إخواننا بغوا علينا[3].

---

(١) ابن عاشور: محمد الطاهر/ تفسير التحرير والتنوير ج٥ ص١٦٨.

(٢) ابن ابي شيبة: الحافظ ابو بكر/ الكتاب المصنَّف في الاحاديث والآثار ج١٥ ص٢٥٦ خبر رقم ١٩٦٠٩ الطبعة الاولى١٩٨٣م الدار السلفية/ الهند.

(٣) الحر العاملي: محمد بن الحسن/ تفصيل وسائل الشيعة ج١٥ ص٨٣ الطبعة الاولى١٩٩٣م مؤسسة آل البيت لاحياء التراث ـ بيروت.

وحينما يصنف الإنسان الآخرين عدائياً، ويحكم عليهم بالإدانة سلفاً، فإنه بالطبع لا يندفع للانفتاح عليهم والحوار معهم.

ولكن حتى إذا غضضنا النظر عن خطأ التصنيف والحكم المسبق، فإنه لا يصح أن نتجاهل أن تطوراً واضحاً في مستوى الوعي، والثقة بالذات، والاستقلالية في الرأي، قد حصل في ساحة المجتمع، نتيجة للتطورات العلمية والاجتماعية، وهذا يعني أن الأيديولوجيات والمذاهب والمدارس الفكرية، ما عادت تحكم سيطرتها في جميع الآراء والمواقف على المنتمين لها، لذا لا يصح أن تحاكم شخصاً أو تدينه من خلال ما تكونه من انطباع عن الاتجاه أو الجهة التي ينتمي إليها، فالأحكام التعميمية والشمولية الكاسحة لم تعد دقيقة ولا صائبة.

ثم إن كون الآخر منتمياً لهذا الإتجاه أو ذاك، ومهما كان تصنيفك له، فإنه لا يصح أن يمنعك من إشادة جسر العلاقة الإنسانية والاجتماعية معه، وخاصة مع وجود مصلحة مشتركة، ولقد عاهد رسول الله ﷺ يهود المدينة ونصارى نجران، وتعاطى الخلفاء من بعده مع مختلف اتباع الديانات، وكانت تحصل اللقاءات والحوارات بين زعاماتهم والقيادات الإسلامية، ويكفينا قوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (١).

٤/ ضغوط التعبئة الجماهيرية:

يبالغ بعض القادة الدينين أو المفكرين أحياناً في تعبئة جمهوره ضد الرأي الآخر والطرف الآخر، وإلصاق مختلف التهم والعيوب فيه،

---

(١) سورة الممتحنة الآية٨.

والتشكيك في نواياه وأصله وفصله، ويرتب على ذلك تحريم وتجريم أي نوع من التواصل معه، أو التعاطي حتى في الحدود الإنسانية الدنيا.

ويحصل حتى ضمن المذهب الواحد، أن يعبأ المنتسبون لمرجع معين جمهورهم ضد اتباع مرجع آخر بحيث لا يتواصلون ولا يأتّمون ببعضهم في صلاة الجماعة، ولا يتعاونون في مشاريع مشتركة.

ان مثل هذه التعبئة تصبح أسراً وقيداً على حركة منتجيها، ويجعل من الصعوبة بمكان أن يتجرؤوا على الانفتاح على الطرف الآخر أو الحوار معه لأن جمهورهم قد تربى على منحى مخالف.

ولا أدري ما هو المبرر الشرعي لهؤلاء في تربية جمهورهم على الأحقاد والأضغان، وسوء الأخلاق؟ مع أن القرآن الكريم يأمر المسلمين أن يتعاملوا مع الكفار المشركين بالتي هي أحسن، لإظهار وجه الإسلام الحضاري الإنساني يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

إن التعامل الحسن مع الآخرين يساعدك على استقطابهم والتأثير فيهم، بينما إساءة التعامل والأخلاق تنفّر الآخرين من الحق الذي تعتبر نفسك داعية له!!

كما يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يستقبلوا الناس كل الناس بحسن المعاشرة وطيب الكلام يقول تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[2] وفي تفسير هذه الآية الكريمة يقول عالم نجد الشيخ عبد الرحمن

---

(١) سورة فصّلت الآية٣٤.

(٢) سورة البقرة الآية٨٣.

السعدي: « ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموماً، فقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب. ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله، أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى الكفار »[1].

٥/ مراكز القوى:

هناك مراكز قوى خارجية وداخلية لا يعجبها أن تسود أجواء الوئام والانسجام في شعوب الأمة، ولا أن تتصلب الوحدة الوطنية في بلاد المسلمين، لذلك تستخدم كل أساليبها ووسائلها للإبقاء على حالة التفرقة والنزاع، ولمنع أي تقارب جادّ بين الجهات والاتجاهات المختلفة.

تلك هي أبرز العوامل ـ فيما يبدو لي ـ، التي تعيق انطلاق مبادرات الانفتاح والحوار بين ذوي الرأي من علماء ومفكري هذه المجتمعات، لكن الواعين المخلصين قادرين على تجاوزها بإذن الله تعالى.

لقد آن أن يتحمل ذو الرأي في مجتمعاتنا وخاصة علماء الدين مسؤليتهم في تجاوز حالة القطيعة مع بعضهم البعض، و أن يتحلوا بالجرأة والشجاعة في الانفتاح والحوار، و أن ينقذوا المجتمع من مشاكل الصراع والنزاع، فالتحديات والأخطار التي تواجهها أجيالنا المعاصرة، أكبر من القضايا الجانبية التي يتم على أساسها التصنيف والافتراق.

---

(١) السعدي: الشيخ عبد الرحمن بن ناصر/ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٦٦/ دار الذخائر ـ مؤسسة الريّان ـ بيروت١٩٩٧م.

الفصل الثالث

من اجل علاقات افضل:

احــــترام مشـــاعر النـــاس

احــترام النــاس مــن أهــمُ العبــادات

النجـــاح في العلاقـــات

الاعتـذار مــن الخطـأ سـلوك حضـاري

بـــين الحقـــوق والواجبـــات

احترام مشاعر الناس

لشخصية الإنسان صورتان:

الأولى: مادية تتمثل في جسمه المكوّن من لحم ودم وعظم..

الثانية: معنوية تتجلى في مكانته الاعتبارية عند الناس، وما تنطوي عليه نفسه من عواطف ومشاعر وأحاسيس.

وكما أن للجانب الأول من شخصية الإنسان حدوداً وحقوقاً تجب مراعاتها واحترامها، فلا يصح الاعتداء على جسمه بالقتل أو الضرب أو الجرح، ولا الاعتداء على أمواله وممتلكاته بالنهب أو السرقة أو الغصب.

كذلك فإن للجانب المعنوي حرمة وحصانة، فلا يجوز اسقاط الشخصية الإعتبارية للإنسان، بتشويه سمعته، ولا يجوز خدش عواطفه ومشاعره وأحاسيسه.

وإذا كان متعارفاً بين الناس رعاية الحرمات المادية، فلا يضرب أحدٌ أحداً أو يجرحه، ولا ينهب منه ماله أو يسرقه، إلا ضمن حالات الخصام أو الإجرام، وهي محدودة شاذة، فإن رعاية الحرمات المعنوية لا تحظى بالاهتمام المطلوب، وغالباً ما تنتهك وتتجاوز، حتى في أوساط المتدينين والملتزمين.

فالبعض من المتدينين يحسب ألف حساب قبل أن تمتد يده لخدش جسم إنسان آخر، أو لأخذ فلس واحد من مال الغير، ولكنه قد لا يتردد كثيراً في جرح مشاعر الآخرين، وإيذاء أحاسيسهم وعواطفهم.

إن جراحات الجسم يظهر أثرها فوراً وبشكل واضح من خروج دم، أو حدوث كسر، أو تغيّر لون. لكن جراح المشاعر تكون في أعماق النفس، وتختمر تفاعلاتها وتتأجج في قلب الإنسان، بعيداً عن المشاهدة والعيان. وهي بذلك أشد إيلاماً، وأقسى وقعاً، ونتائجها أسوأ وأخطر. وقد تتحول إلى عقد متراكمة، وأحقاد مضطرمة، تتفجر في المحيط الاجتماعي ناشرة الويل والدمار.

لذلك يقول الإمام علي عليه السلام: «رُبَّ كلام كالحسام»، «رُبَّ كلام أنفذ من سهام»، «زلة اللسان أشدّ من جرح السنان»، «طعن اللسان أمضى من طعن السنان»[1].

وقال الشاعر:

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

ولو خيّرت أي إنسان بين جرح جسمه أو جرح كرامته، لما أختار الثانية على الأولى إن كان مستقيماً سويّاً. ومشاعر الإنسان رقيقة شفافة تحتاج إلى دقة في المراعاة و الاحترام.

من هنا ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال في تعريف المسلم: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[2].

---

(١) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم.

(٢) الهندي: علي المتقي/ كنز العمال ج١ ص١٤٩.

فالمسلم الحقيقي هو من لا يعتدي على شيء من حقوق الآخرين المعنوية أو المادية، ونجد أن الحديث الشريف قدّم الحرمة المعنوية على المادية، حيث قال: «من لسانه» أولاً، واللسان هو أداة التجريح المعنوي.

«والمراد بالمسلمين هنا كل الناس، وإنما خص المسلمين بالذكر لأن الحديث صدر في بيئة إسلامية، ويدل على إرادة العموم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (1) هذا إلى جانب الأحاديث الكثيرة الآمرة بكف الأذى عن الناس إطلاقاً» (2).

التخاطب مع الناس:

التخاطب هو وسيلة التواصل بين الناس، وتبادل الآراء و الأفكار، والتعبير عن المشاعر والأحاسيس، فبكلامك يعرف الآخرون ما يدور في عقلك، وما تنطوي عليه نفسك تجاههم. يقول الإمام علي عليه السلام: «صورة الرجل في منطقه» (3).

والخطاب هو المرآة التي تكشف نظرتك للناس، وموقفك نحوهم، وهو أداة التعامل مع المشاعر والعواطف. فاحترامك للناس ينعكس على تخاطبك معهم، وكلامك إياهم. لأن الكلمة الطيبة تشرح النفوس، وتسر القلوب، يقول الإمام علي عليه السلام: «ما من شيء أجلب لقلب الإنسان من لسان» (4).

---

(1) سورة الإسراء الآية٧٠.

(2) مغنية: محمد جواد/ في ظلال نهج البلاغة ج٢ ص٤٨٩ الطبعة الثالثة ١٩٧٩م دار العلم للملايين - بيروت.

(3) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٦٨ ص٢٩٣.

(4) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم.

وعلى العكس من ذلك: الكلمة السيئة فإنها تجرح المشاعر، وتمزق العواطف.

لذلك تؤكد التعاليم الدينية على ضرورة الحرص على انتقاء أفضل الكلمات، وأجمل التعبيرات، وأحسن الألفاظ، عند التخاطب مع الناس. ففي القرآن الكريم آيات عديدة تحدد المواصفات التي يجب أن يتسم بها الخطاب مع الناس، نستعرض بعضاً منها:

١ـ **القول المعروف**: عليك أن تتحدث مع الآخرين بما ترتاح له نفوسهم، وأن تبتعد عن كل كلمة تسبب الازعاج والنفور. وحتى بالنسبة لمن يعانون نقصاً أو ضعفاً في شخصيتهم لصغر سنهم أو خفة عقلهم، فإن الإسلام يسلبهم حق التصرف في أموالهم، حفاظاً على مصلحتهم، لأنهم سيهدرون ثرواتهم وإمكانياتهم في غير مصارفها الصحيحة، لكن الولي عليهم، والمسؤول عن حفظ وإدارة أموالهم، يجب أن يتخاطب معهم بلطف واحترام، وبالكلام المقبول. يقول تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾ [١].

فكونه غير ناضج، ولا يوثق بسلامة تصرفه في ماله، لا يعني التجاهل لمشاعره وعواطفه. وكما يقول العلامة الطباطبائي: « فإن هؤلاء وإن كانوا سفهاء محجورين عن التصرف في أموالهم، غير أنهم ليسوا حيواناً أعجم، ولا من الأنعام السائمة بل بشر يجب أن يعامل معهم معاملة الإنسان، فيكلموا بما يكلم به الإنسان لا بالمنكر من القول » [٢].

---

(١) سورة النساء الآية٥.

(٢) الطباطبائي: السيد محمد حسين/ الميزان في تفسير القرآن ج٤ ص١٧٢.

وتكرر الأمر بالقول المعروف في عدة آيات أخرى: ﴿إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾ [1]﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾ [2].

٢ـ **القول السديد**: فالإنسان الذي يخشى ربه، عليه أن يحسب حساباً لكلامه مع الناس، فالكلام السيء المسيء مخالف لتقوى الله، والمتقي لله يتكلم مع الناس برزانة واحترام. يقول تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [3].﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [4] والقول السديد **هو الصواب المحكم الذي لا خلل فيه** ونلحظ في الآيتين الكريمتين الإرتباط بين تقوى الله والقول السديد.

٣ـ **القول الميسور**: والضعيف الذي يقصدك في حاجة، أو يطلب منك مساعدة أو معونة، وأنت لا تستطيع الاستجابة له، فعليك أن تقابله بالكلام الرقيق الجميل ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا﴾ [5]. و« ميسور » مشتقة من « يسر » وهي بمعنى الراحة والسهولة، ويشمل كل كلام جميل وسلوك مقرون بالاحترام والمحبة.

وحتى لو كان هذا السائل المحتاج ملحاحاً فلا تجابهه بالخشونة والغلظة ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ [6].

٤ـ **القول الحسن والأحسن**: أساساً ينبغي للإنسان أن لا يتلفظ للآخرين وعنهم بكلام سيء، بل يلتزم بابداء القول الجميل مع كل

---

(١) سورة البقرة الآية٢٣٥.

(٢) سورة الأحزاب الآية٣٢.

(٣) سورة الأحزاب الآية٧٠.

(٤) سورة النساء الآية٩.

(٥) سورة الإسراء الآية٢٨.

(٦) سورة الضحى الآية١٠.

الناس يقول تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[1]. بل عليه أن يسعى لاختيار أحسن القول والكلام، وأن ينتقي أجمل العبارات أسلوباً ومحتوى ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2].

وحتى مع المناوئين والمخالفين في الدين، يجب الحرص على أدب التخاطب والتحادث معهم، ليكون على أفضل وجه، ومن لا يجد في نفسه القدرة على المناقشة للآخرين بأحسن أسلوب، فليترك هذه المهمة لغيره. يقول تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[3].

هكذا يحدد القرآن الكريم سمات الخطاب والحديث مع الناس، بأن يكون خطاباً معروفاً سديداً ميسوراً حسناً.

الكلام الجارح:

في حالات الغضب والانفعال، وفي مواقع القدرة والقوة، على الإنسان أن يكون أكثر سيطرة على لسانه، وتحكماً في حديثه وكلامه، ولا تتأتى هذه الملكة والصفة للإنسان إلا إذا درّب نفسه وعودها على أمرين أساسيين:

الأول: التفكير قبل الكلام، فلا يتكلم اعتباطاً وارتجالاً، ولا تستدرجه الإثارات والانفعالات، بل يتأمل ويتدبر فيما يريد قوله. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه، وإن لسان المنافق أمام قلبه،

---

(١) سورة البقرة الآية٨٣.

(٢) سورة الإسراء الآية٥٣.

(٣) سورة العنكبوت الآية٤٦.

فإذا همّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه»[1].

وفي أكثر من آية في القرآن الكريم يصف الله تعالى عباده الصالحين بأنهم لا يستجيبون لإثارات الكفار والجاهلين، حينما يشتمونهم ويسبونهم، بل يتسامى المؤمنون عن الانحدار والإسفاف إلى مستوى الجهل والكلام السيء. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[2] واللغو هو الساقط من القول والمقصود به هنا: الشتم والأذى من الكفار. وفي آية أخرى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[3] ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[4].

الثاني: أن يجعل الإنسان نفسه مقياساً، فيضعها مكان الطرف الآخر، فلا يقول للآخرين كلمة حتى يستفتي مشاعره وعواطفه نحوها، هل يرتضيها هو لنفسه؟ وهل يقبل أن تقال له أم لا؟.

يقول الإمام محمد الباقر عليه السلام: «قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم»[5].

ويقول الإمام علي عليه السلام: «اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، وأحبّ لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، لا تظلم كما لا تُحب أن تُظلم، وأحسن كما تُحبّ أن يُحسن إليك، واستقبح

---

(١) الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد/ إحياء علوم الدين ج٣ ص١١٠/ دار المعرفة- بيروت.

(٢) سورة القصص الآية٥٥.

(٣) سورة الفرقان الآية٧٢.

(٤) سورة الفرقان الآية٦٣.

(٥) المجلسي: محد باقر/ بحار الأنوار ج٦٨ ص٣١٠.

لنفسك ما تستقبحه من غيرك، وأرض من الناس ما ترضى لهم منك»[1].

جاء في السيرة النبوية أن النبي ﷺ سخط على أحد اصحابه المجاهدين لأنه تلفظ بكلام جارح لأحد المشركين رداً على استهزائه برسول الله ﷺ. وذلك في الطريق إلى بدر أولى معارك الإسلام الفاصلة، لقي المسلمون رجلاً من الأعراب، فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبرا، فقال له الناس: سلم على رسول الله ﷺ، قال: أوفيكم رسول الله؟ قالوا: نعم، فسلّم عليه، ثم قال: إن كنت رسول الله فاخبرني عما في بطن ناقتي هذه. قال له سلمة بن سلامة بن وقش: لا تسأل رسول الله، وأقبل عليّ فإنا أخبرك عن ذلك، نزوت عليها، ففي بطنها منك سخلة، فقال رسول الله ﷺ: مه، أفحشت على الرجل، ثم أعرض عن سلمة[2].

هكذا لم يرض رسول الله ﷺ بصدور كلام بذيء وإن كان لمشرك مستهزئ بالرسول ﷺ.

وسمع الإمام علي عليه السلام قوماً من أصحابه يسبّون أهل الشام أيام حربهم بصفين، فقال لهم:

«إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي

---

(١) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة/ كتاب رقم٣١.

(٢) ابن هشام: عبد الملك المعافري: السيرة النبوية ج٢ ص١٨٧ دار الجيل-بيروت.

والعدوان من لهج به»[1].

ونقل ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة أنه: خرج حُجر بن عدي وعمرو بن الحمق يظهران البراءة من أهل الشام، فأرسل علي عليه السلام إليهما: أن كُفّا عما يبلغني عنكما، فأتياه فقالا: يا أمير المؤمنين ألسنا محقّين؟

قال: بلى.

قالا: أوليسوا مبطلين؟

قال: بلى.

قالا: فلم منعتنا من شتمهم؟

قال: كرهت لكم أن تكونوا لعّانين شتّامين تشتمون وتتبرأون، ولكنكم لو وصفتم مساوئ أعمالهم فقلتم: من سيرتهم كذا وكذا، ومن أعمالهم كذا وكذا، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان لعنكم إياهم، وبراءتكم منهم: اللهم أحقن دماءهم ودماءنا، وأصلح ذات بينهم وبيننا، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان منهم من لهج به، لكان أحبَّ إليَّ، وخيراً لكم.

فقالا: يا أمير المؤمنين، نقبل عظتك، ونتأدب بأدبك[2].

لاحظوا أن المسألة ليست أن هذا الطرف يستحق السب واللعن أم لا يستحق، وإنما يجب النظر في الانعكاسات والآثار التي يخلفها ذلك

---

(١) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة/ باب الخطب ١٩٩.

(٢) ابن أبي الحديد: عبد الحميد/ شرح نهج البلاغة ج٣ ص١٨١ دار إحياء التراث العربي- بيروت/ الطبعة الثانية ١٩٦٥م.

على مشاعر الآخرين وعواطفهم، وإلاّ فإن أحداً لا يشك في سوء مصير أبي جهل، وكونه من أهل النار، لكن رسول الله ﷺ بعد أن دخل مكة فاتحاً هرب منها عكرمة بن أبي جهل إلى اليمن، خوفاً من أن يقتله رسول الله ﷺ، وكانت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام امرأة لها عقل وكانت قد اتبعت رسول الله ﷺ، فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن ابن عمي عكرمة قد هرب منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فآمنه، قال ﷺ: قد آمنته بأمان الله فمن لقيه فلا يتعرّض له، فخرجت زوجته في طلبه، فأدركته في ساحل من سواحل تهامة، وقد ركب البحر، فجعلت تلوح إليه وتقول: يا ابن عم جئتك من عند أوصل الناس وأبرّ الناس وخير الناس، لا تهلك نفسك وقد استأمنت لك فآمنك، فقال: أنت فعلت ذلك؟ قالت: نعم أنا كلمته فآمنك.

فرجع معها فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: يأتيكم عكرمة مهاجراً فلا تسبّوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ[1].

وفي النصوص والتعاليم الدينية نهي وتحذير عن كل ألوان الكلام الجارح من سب أو شتم أو تعيير أو سخرية وتحقير أو غيبة وبهتان..

حسن الاستقبال والتعامل:

الإنسان كتلة من العواطف والمشاعر والأحاسيس، تعصف به التقلبات، وتعرض عليه الانفعالات، كما تضغطه مشاكل الحياة، وعلاقته مع أبناء جنسه هي ملاذه وملجؤه، فإذا توفر له المحيط الاجتماعي الصالح، الذي يتعامل معه بالاحترام والتقدير، ويساعده

(١) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٢١ ص١٤٤.

على امتصاص واستيعاب تأثيرات ضغوط الحياة والتوترات النفسية، ويرفع معنوياته في مقابل المشاكل والأزمات، عندها يجد الكثير من الراحة والسعادة.

أما إذا عاش في وسط اجتماعي يفتقد أجواء المحبة والودّ، ويعاني من الجفاء والجفاف العاطفي والأخلاقي، فإن ذلك سيضاعف عليه العناء، ويملأ حياته ونفسه بالألم والشقاء.

إنك حينما ترى إنساناً عليك أن تنفذ إلى ما وراء جسمه ومظهره، وتضع في بالك حالته النفسية، وكيانه العاطفي،وتتعاطى مع أحاسيسه ومشاعره، بما يستلزم ذلك من رقة ومحبة واحترام.

والقرآن الكريم حينما يتحدث عن العلاقات الاجتماعية داخل مجتمع المؤمنين يصفهم بأنهم: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [1] أي يرحم بعضهم بعضاً.

ويشير الإمام جعفر الصادق عليه السلام إلى دفء العلاقة التي يجب أن تكون بين المؤمنين، وما يوفره كل واحد منهم للآخر من راحة نفسية فيقول: «إن المؤمن ليسكن إلى المؤمن كما يسكن الظمآن إلى الماء البارد» [2].

وتقدم التعاليم الإسلامية توجيهات مفصلة شاملة لجميع جوانب التعاطي والتعامل بين أبناء المجتمع على أساس من الاحترام والمحبة والاهتمام. بدءاً من السلام وإلقاء التحية، أو إجابتها بأفضل منها، إلى المقابلة بالبشاشة والاستبشار، إلى الإفساح له في المجلس، والإصغاء

---

(١) سورة الفتح الآية٢٩.

(٢) الكليني: محمد بن يعقوب بن اسحاق/ الأصول من الكافي ج٢ ص٢٤٧.

لحديثه، ومواساته والتعاطف معه في همومه، ومساعدته وقضاء حاجتـه.. إلى العشرات من النقاط والتوصيات التي تصنع أفضـل علاقـة، وتـوفّر أجمل رعاية للمشاعر والأحاسيس.

احترام الناس من أهم العبادات

للدين مهمتان رئيسيتان في حياة الإنسان:

الأولى: تنظيم علاقة الإنسان مع ربه، بأن يتعرف على خالقه، ويؤمن به وبوحدانيته، ويلتزم بعبادته والخضوع له. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ﴾[1].

الثانية: تنظيم علاقة الإنسان مع أبناء جنسه، بحيث تكون قائمة على العدل، والاحترام المتبادل للحقوق ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[2].

فعلاقة الإنسان مع الناس قضية جوهرية من صميم الدين، وهي ليست متروكة لمزاج الإنسان واهوائه، فلست حراً في أن تتعامل مع الآخرين كما تحب وتشاء، بل انت مقيد بضوابط شرعية تلزمك بمراعاة حقوق الآخرين، واحترام مصالحهم المادية والمعنوية.

و إذا آمن الإنسان بربه والتزم بأداء الواجبات العبادية لله من صلاة وصوم وحج وما شابه، فإن ذلك لا يحقق له حالة التدين، ولا

---

(١) النحل٣٦

(٢) الحديد٢٥

يوفر فيه مصداقية العبودية لله تعالى، ما لم يقترن بحسن علاقته مع الناس، وادائه لحقوقهم.

فكما امرك الله تعالى بالصلاة والصيام وسائر العبادات، امرك ايضاً بالعدل والاحسان، والتعامل الصحيح مع المحيط الاجتماعي، ولا يصح لك أن تأخذ بجزء وتترك الجزء الآخر.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

ثم إن الإيمان بالله، وأداء الشعائر والعبادات، ثمرتهما ونتيجتهما يجب أن تظهر وتنعكس على سلوك الإنسان وتعامله مع الناس، والاّ فما جدوى ذلك الإيمان الذي لا يردع عن الظلم؟ وما قيمة تلك العبادة التي لا تدفع إلى الخير؟

الإساءة إلى الغير ظلم عظيم:

في رؤية الدين لا شيء أسوأ من أن يعتدي الإنسان على حقوق الآخرين، أو يسيء إليهم مادياً أو معنوياً، إن الله تعالى قد يغفر للإنسان إذا ما قصّر أو أخطأ تجاه خالقه شرط التوحيد ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[2]. ولكنه تعالى لا يتساهل ولا يغفر للإنسان تقصيره وخطأه تجاه الآخرين.

ويصنّف الإمام علي عليه السلام أنواع الظلم إلى ثلاثة أصناف ويعتبر أن ظلم الناس هو الظلم الأخطر بعد الشرك بالله تعالى يقول عليه السلام :

(١) النحل٩٠

(٢) النساء٤٨

«ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله.. وأما الظلم الذي يغفر، فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات، وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضا، القصاص هناك شديد»[1].

ويقول عليه السلام في كلمة آخرى: «من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده».

إن إيذاء أي إنسان بجرح مشاعره أو إهانة كرامته، أو تشويه سمعته، يعتبر ظلماً لا يترك، بل يحاسب عليه الإنسان يوم القيامة حساباً عسيرا.

والإساءة إلى الغير قد تكون بكلمة أو تكون بحركة وتصرف معين، فقد ورد أن رجلاً ثرياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان يلبس ثياباً انيقة، فجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم جاء رجل فقير ثيابه رثّة قديمة، فجلس إلى جنب الثري، فقام الثري بحركة لفتت انتباه النبي صلى الله عليه وآله، حيث قبض ولمّ ثيابه من تحت فخذيه، حتى لا تلامس شيئاً من ثياب ذلك الفقير.

فقال الرسول صلى الله عليه وآله: أخفت أن يمسك من فقره شيء؟

قال: لا.

قال صلى الله عليه وآله: فخفت أن يصيبه من غناك شيء؟

قال: لا.

قال صلى الله عليه وآله: فخفت أن يوسّخ ثيابك؟

---

(١) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة / حكم ١٧٦.

قال: لا.

قال ﷺ: فما حملك على ما صنعت؟

فاعترف الرجل الثري بخطئه واعتذر من الفقير باذلاً له نصف أمواله، لكن الفقير رفض أن يأخذ منه شيئاً قائلاً: أخاف أن يدخلني ما دخلك[1].

كان سعد بن معاذ صحابياً جليلاً مجاهداً في سبيل الله حتى اصيب بجرح خطير في المعركة واستشهد بعد فترة من المعاناة والالم، وقد شهد الرسول ﷺ في حقه حين عاده في مرضه قائلاً:

«اللهم إن سعداً قد جاهد في سبيلك، وصدق رسولك، وقضى الذي عليه، فتقبّل روحه بخير ما تقبلت به روحاً» وعند وفاته شارك الرسول في تشييعه ودفنه، ومع هذه المكانة والمنزلة الا أنه اصابته ضمّة -أي عصرة في قبره- على حد قول رسول الله ﷺ لأنه كان في خلقه مع أهله سوء[2].

فإيمان سعد وجهاده وصحبته للرسول ﷺ وشهادته في سبيل الله كل ذلك لم يسقط عنه جزاء سوء اخلاقه مع اهله وعائلته.

فلنكن حذرين جداً في تعاملنا مع الآخرين، وحتى عوائلنا وابنائنا، فإننا محاسبون أمام الله تعالى عن تصرفاتنا مع الناس، ولن تغني عنا صلاتنا ولا عباداتنا إذا ما قصرنا أو تجاوزنا على حقوق الآخرين المادية أو المعنوية.

---

(١) المجلسي: محمد باقر/ بحار الانوار ج٢٢ ص١٣١.

(٢) المصدر السابق ج١ ص٢٢٠.

ممارسات خاطئة:

يبالغ بعض المتدينين في ادائهم لبعض الشعائر والاعمال العبادية، بطريقة تسبب ايذاءً ومزاحمة للأخرين، ويتصورون أنهم بتلك المبالغة ينالون الاجر والثواب من الله تعالى، وفي الحقيقة إنهم يحمّلون انفسهم الوزر والاثم من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

فمثلاً: ما يحدث في الحج من محاولة بعض الحجيج الاقتراب من الكعبة في الطواف أو استلام الحجر الأسود، بطريقة المغالبة والمزاحمة، مما يؤدي إلى الاضرار بالنفس وبالآخرين، وايذاء الغير حرام بينما تقبيل الحجر الأسود مستحب وكذلك الاقتراب من الكعبة، وهل يصح أداء المستحب بارتكاب المحّرم؟

وقد نجد بعض الناس يحرصون على أن يكونوا في الصفوف الأولى لصلاة الجماعة، وذلك مستحب بلا ريب، وفيه أجر كبير لكنه إذا استلزم إيذاء الآخرين ومدافعتهم، وجرح مشاعرهم، فإنه يتحول إلى سبب للإثم والوزر.

وضمن هذا السياق ما تعارف عليه البعض من رفع صوت المكبرات والسّماعات «الميكرفونات» اثناء تلاوة القرآن، أو قراءة الأدعية، ومجالس العزاء، في أوقات راحة الناس المجاورين للمسجد أو الحسينية أو المنزل مع عدم الحاجة إلى ذلك فالمستمعون عدد محدود داخل المكان، وصوت المكبّرة يخترق المسافات، مما يزاحم راحة المجاورين، وقد يكون فيها مرضى أو أطفال أوما أشبه، أو أن صوت المكبّرة يزاحم مجلساً آخر ومسجداً آخر، فتتعارض الأصوات وتتداخل مما يعطي انطباعاً سلبياً عن الحالة الدينية، وأغلب المساجد في بلادنا يستخدمون مكبّرة الصوت أثناء صلاة الجماعة، وبشكل مزعج، رغم

تحذير وزارة الأوقاف من ذلك، حتى أصبح البعض من الناس يهربون من مجاورة المساجد، بسبب ذلك الإزعاج.

إن مثل هذه الممارسات خطأ، يكسب أصحابها الإثم، لأنه لا يطاع الله من حيث يعصى، ولا يرضى الله تعالى بإيذاء الآخرين وإزعاجهم.

بين حقوق الله وحقوق الناس:

يهتم الإنسان المسلم بالتزاماته العبادية مع الله كالصلاة والصوم والحج... ويحرص على تأديتها حسب الأحكام الشرعية، متقرباً بذلك إلى الله تعالى. وما ينبغي التأكيد عليه هو أن احترام مشاعر الناس، ورعاية حقوقهم المعنوية، لا يقل أهمية عند الله تعالى من تلك العبادات والشعائر الدينية، بل يظهر من بعض النصوص والأحكام أولوية حقوق الناس. كما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «جعل الله سبحانه حقوق عباده مقدمة على حقوقه، فمن قام بحقوق عباد الله كان ذلك مؤدياً إلى القيام بحقوق الله»[1].

ونذكر بعض الموارد التي يتبين منها موقعية احترام مشاعر الناس في الإطار العبادي.

١ـ إن المبادرة للصلاة إذا حان وقتها أمر مطلوب من الناحية الشرعية وإذا أقيمت الصلاة للجماعة تكون أكثر تأكيداً، ورسول الله صلى الله عليه وآله هو الأحرص على هذه الإلتزامات الشرعية، لكن الرواية الواردة عن أنس رضي الله عنه قال: أقيمت الصلاة ورجل يناجي رسول الله صلى الله عليه وآله فما

---

(١) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم.

زال يناجيه حتى نام أصحابه، ثم قام فصلى[1].

٢ـ ويصلي رسول الله ﷺ بالمسلمين جماعة، فيطيل في سجوده أكثر من المعهود فيسأله القوم بعد الصلاة: يا رسول الله لقد سجدت في صلاتك هذه سجدة ما كنت تسجدها، كأنما يوحي إليك. فقال ﷺ: لم يوح إليّ، ولكن ابني ـ الحسن بن علي ـ كان على كتفي فكرهت أن أعجله حتى نزل[2].

٣ـ ويسمع رسول الله ﷺ بكاء طفل وهو يصلي بأصحابه جماعة، فيخفف صلاته رحمة بذلك الطفل، ورعاية لعواطف أمه. روى أبو قتادة عن النبي ﷺ قوله: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطوّل فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه»[3].

وفي رواية عنه ﷺ: «فأتجوّز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه»[4].

وعن أنس بن مالك: وإن كان ﷺ ليسمع بكاء الصبي فيخفف مخاف أن تفتن أمه[5].

٤ـ عن أبان بن تغلب قال: كنت مع أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام في الطواف، فجاء رجل من إخواني، فسألني أن أمشي معه في

---

(١) البخاري: محمد بن اسماعيل/ صحيح البخاري ج٨ ص٨٠ كتاب الإستئذان – باب طول النجوى.

(٢) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٤٣ ص٢٩٤.

(٣) البخاري: محمد بن اسماعيل/ صحيح البخاري ج١ ص١٨١ باب من أخف الصلاة.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

حاجته. ففطن بي أبو عبد الله عليه السلام فقال: يا أبان من هذا الرجل؟

قلت: رجل من مواليك سألني أن أذهب معه في حاجته.

قال: يا أبان اقطع طوافك، وانطلق معه في حاجته فاقضها له.

فقلت: إني لم أتم طوافي.

قال: إحص ما طفت وانطلق معه في حاجته.

فقلت: وإن كان طواف فريضة؟

فقال: نعم وإن كان طواف فريضة.

إلى أن قال عليه السلام: لقضاء حاجة مؤمن خير من طواف وطواف، حتى عدّ عشر.

فقلت له: جعلت فداك فريضة أم نافلة؟

فقال: يا أبان إنما يسأل الله العباد عن الفرائض لا عن النوافل[1].

٥ـ وللصوم المستحب فضل عظيم وأجر كبير، لكنك إذا دعيت للطعام من قبل أحد اخوانك المسلمين، فإن استجابتك له أرجح عند الله تعالى من اكمال الصيام.

ورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «من نوى الصوم ثم دخل على أخيه فسأله أن يفطر عنده فليفطر، فليدخل عليه السرور، فإنه يحتسب له بذلك اليوم عشرة أيام»[2].

---

(١) الحر العاملي: محمد بن الحسن/ تفصيل وسائل الشيعة ج١٣ ص٣٨٠ حديث رقم ١٨٠١١ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ـ قم.

(٢) المصدر السابق ج١٠ ص١٥١ حديث رقم١٣٠٨٤.

وفي حديث آخر: «من دخل على أخيه وهو صائم تطوعاً فأفطر كان له أجران: أجر لنيته لصيامه، وأجر لإدخال السرور عليه»[1].

إن هذه الأحكام والتوجيهات الدينية تريد تربية الإنسان المسلم على احترام مشاعر الآخرين، وحفظ كرامتهم ومكانتهم، وأن ذلك مورد لرضى الله سبحانه، ومخالفته توجب سخطه، والمتدين الذي يهتم بضبط أحكام وضوئه وصلاته، عليه أن يكون أكثر اهتماماً بضبط أسلوب تعامله وعلاقته مع الناس. فقد قيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها. فقال ﷺ: «هي في النار»[2].

الرسول القدوة:

إن سيرة الرسول ﷺ وأخلاقه العظيمة في تعامله مع الناس، يجب أن تكون مدرسة يستلهم منها المسلمون أروع المناهج والبرامج في تشكيل وصياغة علاقاتهم الاجتماعية، فمع عظيم قدره ومكانته، ومع موقعيته القيادية في مجتمعه، كان يتعامل مع جميع الفئات والأصناف بمنتهى الرقة والعطف، وغاية التقدير و الاحترام.

كان من صفاته ﷺ أنه لا يقطب وجهه، وإذا قال إنسان شيئاً يكرهه لم يجابهه بذلك، بل كان يقول: ما بال أقوام يصنعون كذا ويقولون كذا؟ فينهى بدون أن يسمي فاعل الأمر.

وكان يتفقد أصحابه، ويعطي كل واحد من جلسائه نصيبه، لا

---

(١) المصدر السابق/ حديث رقم ١٣٠٩١.

(٢) القزويني: حسن مرتضى/ الرسول الأكرم مدرسة الأخلاق ص٢٧٣ الطبعة الأولى ١٩٩١م دار البيان العربي- بيروت.

يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه.

ومن جالسه لحاجة صبر له حتى يكون هو المنصرف عنه.

ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها، أو بميسور من القول. وكان ﷺ يقول: «ردوا السائل بشيء قليل، أو بقول جميل».

وقد روى بعض خدمه أنه قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف قط، وما قال لشيء صنعته، لَمَ صنعته؟ ولا لشيء تركته، لَمَ تركته؟

وكان من عادته أنه يجيب الناس الذين ينادونه بأحسن جواب، فكان إذا ناداه أحد قال له: لبيك.

وعن جرير بن عبد الله قال: ما حجبني رسول الله ﷺ قط منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسّم، وكان يمازح أصحابه، ويخالطهم، ويحادثهم، ويداعب صبيانهم، ويجلسهم في حجره، ويجيب دعوة من دعاه، ويعود المرضى حتى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر، ولا يرتفع على أحد حتى عبيده وإمائه في مأكل ولا ملبس.

وروى بعض أصحابه أنه ﷺ إذا فقد الرجل من أصحابه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده، وكان لا يدع أحداً يمشي معه إذا كان راكباً حتى يحمله معه، فإن أبى قال: تقدم أمامي وأدركني في المكان الذي تريد.

وكان يتعاون مع أصحابه، كأنه أحدهم لا يترفع عليهم في قليل ولا كثير. فقد كان في سفر فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: يا رسول الله عليّ ذبحها، وقال آخر: عليّ سلخها، وقال آخر: عليّ طبخها، فقال ﷺ: وعليّ جمع الحطب. فقالوا: يا رسول الله نحن نكفيك، فقال ﷺ:

قد علمت أنكم تكفوني، ولكني أكره أن أتميّز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه. ثم قام فجمع الحطب.

وكان إذا استمع إلى أحد لا ينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه.

وكان إذا أخذ بيده أحد، لا يرسل يده حتى يرسل ذلك الإنسان يده.

وما قعد إلى رجل قط فقام حتى يقوم ذلك الرجل، ولم ير مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له، وكان يبدأ من لقيه بالسلام حتى الأطفال والنساء، ويبدأ أصحابه بالمصافحة.

ويكرم من دخل عليه، وربما بسط إليه ثوبه، ويؤثره بفراشه الذي تحته، ويكنّي أصحابه، ويدعوهم بأحب أسمائهم، تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثه.

وقد روى سلمان الفارسي رضي الله عنه: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو متكئ على وسادة، فألقاها إلي. ثم قال: يا سلمان ما من مسلم دخل على أخيه المسلم فيلقي له الوسادة إكراماً له إلا غفر الله له.

وإذا كان يصلي وجاء إليه أحد خفف صلاته حتى يفرغ منها مسرعاً ليسأله عن حاجته، ثم يعود إلى صلاته.

وكان يؤتى بالصبي الصغير فيدعو له بالبركة، أو يسميه، أو يؤذن في أذنه، فيأخذه فيضعه في حجره تكرمة لأهله، وربما بال الصبي عليه فيصيح عليه بعض من رآه حين بال، فيقول صلى الله عليه وآله وسلم: لا تزرموا بالصبي فيدعه حتى يقضي بوله، ثم يفرغ له من دعائه أو تسميته أو أذانه. فيبلغ بذلك سرور أهله إلى ما شاء الله، حيث يرون أنه لا يتأذى ببول

صبيهم، فإذا انصرفوا غسل ثوبه.

وكان إذا جلس إليه أحد تزحزح له شيئاً، وذات مرة قال له رجل: يا رسول الله في المكان سعة، فقال: نعم، لكن من حق المسلم على المسلم إذا رآه يريد الجلوس أن يتزحزح له[1].

وخرج رسول الله ﷺ من المدينة متوجهاً إلى الحج في السنة العاشرة، ومعه خلق كثير، فلما انتهى إلى ذي الحليفة أدرك أسماء بنت عميس زوجة أبي بكر المخاض، فعطل رسول الله سفره وأقام تلك الليلة ومعه كل المسلمين من أجلها، وولدت محمد بن أبي بكر[2].

وجاء إعرابي فبال في جانب من المسجد فزجره الناس فنهاهم النبي ﷺ فلما قضى بوله أمر النبي ﷺ بذنوب من ماء فأهريق عليه[3].

وفي رواية قام إعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس فقال لهم النبي ﷺ: دعوه وهريقوا على بوله سَجْلاً من ماء أو ذنوباً من ماء فإنما بعثتم ميسُرين ولم تبعثوا معسِّرين[4].

ومرّ ﷺ ذات يوم بصبي فرآه حزيناً ولما سأله عن السبب قال: إن بلبله قد مات فعزاه وخفف عنه[5].

---

(١) الشيرازي: السيد محمد الحسيني/ السبيل إلى إنهاض المسلمين ص٤١٠ـ٤١٤ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/قم.

(٢) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٢١ ص٣٨٩.

(٣) البخاري: محمد ابن اسماعيل/ صحيح البخاري ج١ ص٦٥ باب صب الماء على البول في المسجد.

(٤) المصدر السابق.

(٥) القزويني: حسن مرتضى/ الرسول الأكرم مدرسة الأخلاق ص٢٢٠.

واستقصاء أخلاقيات رسول الله ﷺ وروائع سيرته العطرة تحتاج إلى مجلدات، وإنما أردنا تقديم بعض الصور والنماذج، لتأكيد أهمية حسن التعامل والعلاقة مع الناس، وضرورة احترام مشاعر الآخرين وأحاسيسهم وعواطفهم.

النجاح في العلاقات

يتعرض الإنسان من خلال علاقاته وتعامله مع الناس إلى امتحان دائم، فهو من جهة يواجه أمزجة مختلفة ونفسيات متفاوتة، ومن جهة أخرى يحتاج إلى التعامل والتعاطي الدائم معهم، ولكي يكون الإنسان ناجحاً في هذا التعامل ينبغي أن يمتلك صدراً منشرحاً ونفسية سمحة.

فالتعامل مع البشر تختلف قوانينه عن التعامل مع الطبيعة، إذ قوانين الطبيعة ثابتة بينما البشر أمزجة مختلفة، وعقول متفاوتة، ومصالح شتى، وأكثر من ذلك أن مزاج الفرد الواحد لا يكون ثابتاً دائماً بل يتقلب بتقلب الظروف والأجواء التي تحيط به، مما يضفي على الصعوبة الموجودة أصلاً صعوبة أخرى، فقد تلتقي بشخص يوماً فيكون فيه سعيداً فرحاً مسروراً، ثم تلتقي به يوماً آخر فتجده على عكس ذلك تماماً.

وليس صحيحاً أن يلقي الإنسان باللائمة في مشكلات التعامل على الآخرين، فيعتبر نفسه بريئاً من كل نقص، أو يرى أن النقص والعيب في الآخرين فقط، فيقول إن الناس لا يفهمونه ولا يقدرونه، وأنهم غير جديرين بالاحترام والتقدير، وأنهم لو كانوا كذا لكان تعامله معهم أفضل، ولو كانوا مثل فلان وفلان، لكنت ناجحاً معهم.

والواقع أن الناس لا يمكن أن يكونوا كما يتمنى أي شخص

ويريد، فهل يتصور هذا أن الله يخلق الخلق حسب مزاجه ورغبته هو، وهل الناس لباس تفصله على ذوقك حتى تلبسه؟ أم أثاث تريد أن تستعمله فتعطي قياسه للنجار فيصنعه لك. إن الناس هم الناس.. في كل مكان تذهب إليه وسيبقون كذلك.

ولم يحقق الله لأحد من خلقه، حتى من أنبيائه ورسله، أن يخلق له أناساً من صفات معينه حتى ينجح في تعامله معهم.

فكيف ينجح الإنسان في تعامله مع الناس رغم اختلاف نفسياتهم، هذا ما تجيب عنه الآية ٦٣ من سورة الفرقان حيث يقول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾

حيث تؤكد الآية أن ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ الذين يخضعون لأوامره ونواهيه، يتصفون بصفة هامة تساعد في إنجاح علاقتهم مع الآخرين وتأثيرهم عليهم، وهذه الصفة هي أنهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ فلا يمشون بخيلاء وتكبر وتجبر، وأنهم لا ينظرون إلى أنفسهم بتميز عن الآخرين ولا يشعرون بأنهم أرقى من بقية الناس.

وهذه النفسية المتكبرة لا يمكن أن تنجح في التعامل مع الغير، لأن أهم أسس النجاح أن يكون الإنسان قادراً على التسامي على ردات الفعل، ومتمكناً من ضبط النفس أمام كل إثارة وتهييج، وأنى للمتكبر أن يصل إلى هذا المستوى

ثم تقول الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾ والجاهلون ليسوا بالضرورة طبقة الاميين أو غير المتعلمين بل قد يكونون أناساً متعلمين وعلماء متخصصين، غير أنهم جهّال في كيفية التعامل مع غيرهم، وهم ليسوا بالضرورة صغاراً في السن بل قد

يكونون كباراً في السن إلا أن تصرفاتهم طفولية.

فالذين هم من عباد الرحمن المطيعين لا يستجيبون لإثارات الجاهلين بل يكون ردهم كما تؤكد الآية ﴿سَلاَمًا﴾

وسلاماً هنا تعني الوداع، أي أن هذا وقت الإفتراق بيننا، أي أننا لن نستجيب لكم في الوقوف عند كل تصرف جاهل تقومون به، بل سنمر عليه مرور الكرام، كما تشير إلى ذلك آية أخرى حيث يقول عز وجل: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[1]. وفي آية أخرى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[2]. فليس يليق بشأنهم أن يردوا على كل تصرف جاهل، بل هم أرفع وأعلى وهم منصرفون إلى مهماتهم وأعمالهم الطيبة الأساسية لا ينشغلون عنها بالترهات والخصومات الجانبية.

وهذه هي الصفة التي تميزت بها الشخصيات الناجحة في التعامل مع الآخرين.

ويعطي لنا الإمام علي بن الحسين عليه السلام نموذجاً لتلك الشخصية فقد حدث «أن لئيماً اعتدى عليه فسبه، فأشاح عليه السلام بوجهه عنه، فانفتخت أوداج اللئيم وراح يقول له: أياك أعني. واسرع الإمام قائلاً وعنك أغضي.. وتركه الإمام وانصرف»[3].

---

(١) سورة الفرقان / آية ٧٢

(٢) سورة القصص / آية ٥٥

(٣) القرشي: باقر شريف / الامام زين العابدين ص٧٧ ج١ / الطبعة الاولى ١٩٨٨م دار الاضواء بيروت.

وخرج من المسجد ذات مرة فسّبه رجل فأسرع إليه الناس للإنتقام منه فنهاهم عن ذلك، وأقبل عليه قائلاً: ماستره الله عنك أكثر الك حاجة نُعينُك عليها؟ وخجل الرجل وود أن الأرض قد ساخت به، ولما نظر إليه الإمام اشفق عليه فألقى إليه خميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم»[1].

هذا في حين أنك تجد بعض الناس يتفاعلون حتى مع الكلام الذي ينقل اليهم عن الآخرين رغم أن النقل قد لا يكون دقيقاً.

وينقل عن الشيخ الآخوند محمد كاظم الخراساني رحمه الله، أنه كان آية في تعامله حتى مع المناوئين له وكان يهتم خصوصاً بمبادلتهم الإساءة بالحسنى..

وذات مرة دخل عليه أحد الخطباء المعروفين ممن كانوا يعارضون الشيخ الآخوند في تزعمه لحركة المشروطة التي تطالب الملك القاجاري في إيران بوضع دستور للبلاد وإنشاء مجلس للشورى، وكان ذلك الخطيب ينتمي إلى مجموعة أخرى كانت تسمى بالمستبدة، تطالب بأن يبقى الوضع كما هو خوفاً من دخول القوانين غير الإسلامية في الدستور أو نفوذ رجال من خارج الوسط الديني في مجلس الشورى، ولوجود حالة الخلاف هذه فكثيراً ما تناول ذلك الخطيب من على منبره الشيخ الآخوند بالنقد والتجريح على موقفه وشاء القضاء أن يحتاج هذا الخطيب أن يبيع بيته حتى يسدد ديناً عليه فقال له المشتري إذا وقع الآخوند على سند بيتك إشتريه وإلا فلا.. فجاء إلى النجف. والتقى الشيخ الآخوند.. احترمه الشيخ كثيراً وأجلسه في صدر المجلس وعبر له

---

(١) المصدر السابق ص

عن سروره بلقائه، فقال الخطيب: أرجو أن توقع هـذا السـند لأسـتطيع أن أبيع بيتي، فأخذ الشيخ السند ثم بعد فترة قـام الشـيخ وأخـرج مـن خزانتة عدة أكياس من الليرات، ودفعها إلى الخطيـب وقـال: أنـت مـن أهل العلم وأنا لا أرضى أبداً بضغط الحاجة على أهل العلـم، خذ هـذا المبلغ وأدِّ ديونك ولا تبع بيتك فتشرد عائلتـك. فخجـل الخطيـب مـن تصرف الشيخ ولكنه أصبح بعد ذلك من أنصار الشيخ ومحبيه[1].

الأقربون أولى:

ومهمـا كانـت الحاجـة إلى ممارسـة هـذا الخلـق مـع النـاس ماسـة وشديدة إلا أن التعامل بها مع المحيط القريب من الإنسـان أهـم وأكـبر. فالعفو والصفح له قيمة عظيمة إذا مارسته مع الأبعدين، ولكـن قيمتـه تزداد حينما يمارس وسط العائلة والأسرة والـدائرة الأقـرب للإنسـان، مع الوالدين الكبيرين، ومع الزوجـة والأبنـاء، مـع الفقـراء والضـعفاء ومن لا حول لهم ولا قوة.

ذلك أن القوي قد يندفع الإنسان للتنازل معه بـدافع مـن الخـوف والهيبة وتجنباً للمشاكل، أما الضعيف الذي لا يملك حولاً ولا قـوة، فـإن التنازل له لا يحركه الخوف، بل رغبة للثواب والأجـر مـن الله وانطلاقـاً من طيب الذات والمعدن.

أما بعض الناس، ونحن نسمع احياناً شيئاً من هذه القصـص، إذا أخطأ في حقهم بعض اخوانهم فإنهم يكشرون عـن أنيـابهم فينتقمـون مـنهم بشراسـة. وإذا تجـاوز علـيهم أنـاس غربـاء عـنهم أو أقويـاء في

---

(١) مختاري: الشيخ رضى / سيماء الصـالحين / ترجمـة الشـيخ حسـين الكـوراني/ دار البلاغة بيروت ١٩٩٢م ص٢٧٨

مراكزهم، فإنهم يخنعون ويركعون ويدفنون رؤوسهم في الرمال.. ثم لا يفتأ يكرر عليك كلمات الصبر والتحمل « ماعليه، بسيطة، مايخالف، نتحملها، شدة وتزول »، وبذلك يكونون مصداقاً لقول الشاعر:

أسد علي وفي الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الضحى بل كان قلبك في جناحي طائر

وليت شعري، أين كانت هذه الكلمات حينما أخطأ في حقك أخوك في النسب أو الإيمان، ولماذا اعتبرت ثورتك هناك استرداداً لعزتك وكرامتك التي تصورت أنها انتهكت وأهينت، أما هنا فتحولت إلى صابر محتسب، فأين منك إذاً قول الله عز وجل: ﴿ذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1].

ان طريق الفرد، والمجتمع للنجاح في تحدي العلاقة مع الآخرين يمر حتماً عبر هذه المقدمة وما لم يكن الإنسان قادراً على التحكم في ردات فعله على تصرفات الغير، فإنه لن يكون ناجحاً في تعامله، ولنا في سيرة النبي ﷺ وأهل بيته خير أسوة وقدوة، ولنستفيد من سيرة العظماء الذين بلغوا أعلى المناصب لكنهم تغلبوا على حس الانتقام فهذا يوسف الصديق عليه السلام يخاطب إخوته حينما دخلوا عليه مصر وهو ملك عليها، بعد أن أساؤوا في حقه كثيراً، حسدوه وألقوه في غيابت الجب، ثم بيع كعبد في مصر، وتعرض للسجن والاتهام، لكنه كان اسمى واكبر من الانتقام والحقد، بل خاطبهم: ﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[2].

---

(١) سورة المائدة / آية ٥٤

(٢) سورة يوسف / آية ٩٢

ان سعة الصدر، صفة ضرورية للنجاح في الحياة الاجتماعية، ولتجاوز مشاكل التعاطي والتعامل مع الآخرين من القريبين والبعيدين، وهي تجعل نفس الإنسان في راحة من التفاعل مع اساءات الآخرين، كما توفر على اعصاب الإنسان ومشاعره حالة الاضطراب والتشنج الناتج من ردات الفعل على الاستفزازات المعادية.

الاعتذار من الخطأ سلوك حضاري

صدور الخطأ من الإنسان أمر طبيعي ومتوقع، فما دام ليس معصوما فهو معرض للغفلة وسيطرة الشهوة وغلبة الانفعال، وتلك هي أرضية الخطأ ومنشأ حدوثه.

لكن الأمر المهم هو كيفية تعامل الإنسان مع خطئه. فهل يتعهد نفسه بالمراقبة والمحاسبة، ويراجع مواقفه وتصرفاته، ليكتشف أخطاءه وعثراته؟ أم يبقى مسترسلا سادرا تتكرر أخطاؤه وتتراكم دون اهتمام منه وانتباه؟

من ناحية أخرى هل يمتلك شجاعة التراجع والاعتذار عن الخطأ؟ أم يصر عليه؟ أو يتهرّب من تحمل المسؤولية تجاهه؟

ثم إن خطأ الإنسان قد يكون تجاه نفسه، أو تجاه ربه، أو تجاه الآخرين من أبناء جنسه. وحديثنا الآن مخصص لبحث هذا القسم الأخير.

اتهام الذات قبل الآخرين:

حينما يحصل خلل في العلاقة بين الإنسان وآخرين، فإنه غالبا ما يتنصل من المسؤولية، ويحمّل الطرف الآخر وزر ما حدث، فهو يبرء نفسه ويصدر حكما سريعا على الآخر بإدانته وتحميله مسؤولية الخلل.

وهذا ينشأ من حب الذات، والدفاع عنها، والتعود على تبرير التصرفات والممارسات.

أما التفكير بموضوعية، والتعاطي بنضج ووعي، فهو يوجه الإنسان إلى اتهام ذاته أولا، ومحاسبتها على هذا الأساس حتى يثبت العكس.

وإذا أخذ الإنسان هذه الفرضية بعين الاعتبار، وحاسب نفسه وناقش تصرفاته وتعامله، فقد يكتشف بالفعل أنه كان مخطئا بحق الآخر، أو أنه شريك في الخطأ، ويتحمل نسبة معينة منه.

ويربينا القرآن على هذه المنهجية السليمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

واكتشاف الخطأ هو الخطوة الأولى في طريق المعالجة والإصلاح، أما الخطوة الثانية والأهم، فهي إعلان تحمّل المسؤولية أمام الطرف الآخر، والاعتذار إليه من وقوع الخطأ تجاهه.

وهو موقف بطولي لا يصدر اختيارا إلا عن ثقة وشجاعة وعدالة وإنصاف.

فالإنسان الذي يحترم نفسه لا يرى الخطأ جزءا من شخصيته حتى يصعب عليه الاعتذار عنه، بل يراه غبارا ووسخا يرتاح بإزالته والتخلص منه.

وتحمّل مسؤولية الخطأ مظهر رفيع لالتزام العدل وممارسة

---

(١) سورة يوسف الآية ٥٣.

الإنصاف، حيث يكون الإنسان في جانب الآخر مقابل ذاته. وكما يقول الإمام علي عليه السلام: «غاية الإنصاف أن ينصف المرء من نفسه»[1].

ويقول عليه السلام: «ألا إنه من ينصف الناس من نفسه لم يزده الله إلا عزاً»[2].

لماذا الاعتذار؟

الاعتذار يعني الإقرار بالخطأ، وطلب العفو والصفح من الطرف الآخر.

قال الجرجاني: الاعتذار: محو أثر الذنب.

وقال الكَفَويّ: الاعتذار إظهار ندم على ذنب تُقرّ بأن لك في إتيانه عذرا.

وقال المناوِيّ: الاعتذار: تحرّي الإنسان ما يمحو أثر ذنبه[3].

والاعتذار سلوك حضاري يدل على احترام الإنسان لنفسه، وتقديره لغيره. وينطوي على فوائد وعوائد كثيرة من أهمها:

١ـ الاعتراف بالخطأ والاعتذار عنه يشكل رادعا للإنسان عن تكراره، لأن الاقدام على هذه الخطوة يكتنفها ضغط وعناء نفسي، فليس سهلا على الإنسان أن يقف موقف الإقرار والاعتذار من الآخرين، فهو نوع من العقوبة الاختيارية يفرضها الإنسان على نفسه،

---

(١) الواحدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم.

(٢) الكليني: محمد بن يعقوب/ الأصول من الكافي ج٢ ص١٤٤.

(٣) مجموعة من المتخصصين: موسوعة نضرة النعيم ج٢ ص٣٨٩ الطبعة الأولى ١٩٩٨م دار الوسيلة/ جدة.

مما يخلق لديه حساسية وحذرا من الوقوع في حالة مشابهة، ويجعله يعيد النظر في الأسباب والعوامل التي أوقعته في الخطأ، وذلك سبيل لإصلاح النفس ومعالجة سلبيات السلوك.

بعكس ما إذا مرّ الإنسان على خطئه مرور الكرام، ولم يشعر بأي مضاعفات أو نتائج مؤذية، فقد يستهين بالأخطاء حينئذ، ويستسهل ارتكابها.

٢ـ وهو محاولة لإصلاح الخلل الذي أحدثه الخطأ، وتدارك مضاعفاته على الآخرين، كما يشكل نوعا من إعادة الاعتبار لمن وقعت عليه الإساءة، وأداء لحقه. يقول الإمام علي عليه السلام: «حسن الاعتراف يهدم الاقتراف»[1].

٣ـ والاعتذار ينزع فتيل الغضب من نفس الطرف الآخر، ويطفئ نار العداوة، ويحتوي الأزمة والتشنج. إن أكثر النزاعات والخصومات المترتبة على تصرفات خاطئة يمكن حلها وتجاوزها عن طريق كلمة اعتذار رقيقة، تشيع في نفس الطرف الآخر الرضا، وتشعره بإعادة الاعتبار.

٤ـ ولا يسود هذا الخلق الحضاري الرفيع إلا عبر المبادرة لممارسته من قبل الواعين الناضجين، إن التزام أي فرد به وخاصة إذا كان في موقعية مرموقة، يشجع الآخرين من حوله على التخلق به، فإذا رأى الأبناء شجاعة أبيهم في الاعتذار إليهم عن زلل صدر منه تجاههم، فإنهم سيقتدون به في تعاملهم مع الآخرين، وإذا لاحظ العاملون في أي مؤسسة أن كبار الموظفين يتحملون مسؤوليتهم تجاه الأخطاء ويعتذرون

---

(١) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٤ ص٤٢٠.

عنها، فإنهم سيسيرون على نفس النهج، وهكذا بالنسبة لسائر الموقعيات والمناصب القيادية في المجتمع.

إن كل من يتمنى ويرغب أن يتعامل معه الآخرون بهذا الأسلوب المريح، عليه أن يبادر هو بانتهاجه مع الآخرين، ليترسخ كمبدأ في العلاقات الاجتماعية، وكقيمة أخلاقية سامية.

٥- الفوز برضوان الله والأمن من عقابه يوم القيامة، وذلك بالتخلص من حقوق الناس وظلاماتهم، حيث تؤكد النصوص الدينية: أن الله تعالى لا يتساهل في حقوق الناس على بعضهم البعض، كما روي عن رسول الله ﷺ: «أما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئا فظلم العباد بعضهم بعضا، القصاص لا محالة»(١).

ومثله ما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضا، القصاص هناك شديد، وليس هو جرحا بالمدى، ولا ضربا بالسياط، ولكنه ما يستصغر ذلك معه»(٢). وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ قال: قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة»(٣).

وتشير عدة أحاديث مروية عن الرسول ﷺ إلى أن أصحاب المظالم والحقوق يأخذون من حسنات الإنسان يوم القيامة، حتى إذا انتهت كل حسناته توضع عليه من سيئاتهم مقابل حقوقهم عليه(٤).

---

(١) الريشهري: محمدي/ ميزان الحكمة ج٥ ص٦٠١.

(٢) المصدر السابق ص٦٠٢.

(٣) المصدر السابق ص٣٤٩.

(٤) الهندي: علي المتقي/ كنز العمال ج٣ ص٥٠٦ حديث رقم ٧٦٤٢/٧٦٤٣/٧٦٤٤.

إن بإمكان الإنسان أن يتخلص من كثير من الظلامات عبر لحظة اعتراف، وكلمة اعتذار، فيوفر على نفسه العناء والعذاب الشديد يوم القيامة.

خلفيات الامتناع:

لماذا يصعب على الكثيرين من الناس تدارك أخطائهم بتقديم الاعتذار إلى المتضررين؟ ولماذا التردد والامتناع عن انتهاج هذا المسلك الحضاري؟

يبدو أن هناك خلفيات نفسية وثقافية واجتماعية يمكن اعتبارها عوائق وموانع من انتشار هذا الخلق الكريم.

أولا: التفكير والتصور الخاطئ بأن الاعتذار عن الخطأ تشكل حالة ضعف وهزيمة لشخصية الإنسان، وفي الحقيقة قد يكون ذلك صحيحا لأول وهلة، وفي الظاهر، لكن واقع الأمر، إنه يكشف عن ثقة بالنفس، وشجاعة في الموقف، وهو ينتشل الإنسان من موقع الضعف الذي انحدر إليه بخطئه، إلى موقع القوة الذي يرتقيه باعتذاره، وبالتالي فإنه كسب وانتصار للإنسان على المدى البعيد.

ثانيا: التعصب للذات بتبرير أخطائها والدفاع عنها حتى في الزلات والعثرات، وذلك ما يعبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[1].

إنه لا يعترف على نفسه بالخطأ، ولا يقبل لذاته أن يكون في موضع الإقرار و الاعتذار، إنه المحق دائما و أبدا، والمصيب في كل

(١) البقرة الآية٢٠٦.

مواقفه و تصرفاته، و إن كان في أعماق نفسه مدركا لباطله و انحرافه، لكن العزة الآثمة ، والعصبية الجاهلية لا تسمح له بالتراجع و التدارك.

ثالثا: التعالي والشعور بالرفعة والتفوق: وخاصة إذا ما أخطأ الإنسان تجاه من يعتقد أنهم أقل منه شأنا ومكانة، فإنه يأنف ويستثقل طلب المعذرة منهم.

وفي الواقع فإن جوهر الأخلاق الفاضلة، وحقيقة النبل والسمو، إنما تتجلى في مثل هذه المواقف، إذ ليس فخرا كبيرا أن يعتذر الإنسان لمن هم أقوى منه، وأرفع شأنا ومنزلة، فقد تكون الظروف تفرض عليه ذلك، أو تدفعه بهذا الاتجاه، لكن الفضل والمجد هو في حسن التعامل مع الضعفاء، وأداء حقوقهم، والتزام مكارم الأخلاق تجاههم.

رابعا: الثقافة العامة والأجواء الاجتماعية: حيث قد تسود المجتمع ثقافة التفاخر والتباهي، وأجواء العصبية والمزايدات، مما يجعل الأفراد منساقين ضمن هذا التيار العام.

تماما كما نقرأ في تاريخ العرب قبل الإسلام، وكيف كانت تحكمهم العصبيات القبلية، ومشاعر الاعتزاز والفخر تجاه بعضهم البعض، وكانوا يمارسون مبدأ «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» بمعناه الحرفي، ويستجيبون لمبالغات شعرائهم التي كانت تملأ نفوسهم بالزهو، وتزين لهم مواقف التصلب والتعالي على الآخرين.

فهذا أحدهم يقول عن قبيلته:

ونَنكِر إن شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقول

ويقول آخر:

وإنا أناس لا توسط بيننا ... لنا الصدر دون العالمين أوالقبر

ويقول ثالث:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
ذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا

ولا تزال رواسب هذه الثقافة الجاهلية، وروح التعالي والتعصب، تلعب دورها في نفوس أبناء الأمة العربية إلى اليوم.

وإلا فكيف تفسر خطابات رئيس النظام العراقي صدام، ومقولات وسائل إعلامه؟

إنه يتحدث عن تفوق العراق، وعن سحق قوى الاستكبار، وعن أم المعارك، وأعظم الانتصارات التاريخية، بينما يعيش نظامه في أسوأ عزلة، ويرزح شعبه تحت أبشع حصار.

ومع كل المآسي التي أوقعها بالعراق والأمة العربية والإسلامية، عبرحربيه الظالمتين ضد إيران واحتلال الكويت، فإنه يرفض الاعتذار عن خطئه، ويكرر مقولاته الشريرة!!

كما تتمظهر رواسب الثقافة الجاهلية في مجتمعاتنا بأشكال متعددة ومختلفة، على مستوى الأفراد والتجمعات والمجتمعات.

قبول الاعتذار:

أن يقدم المخطئ اعتذاره، تلك خطوة رئيسية هامة لتجاوز الخصام و تحقيق الوئام، لكنها يجب أن تقابل بخطوة إيجابية من الطرف الآخر، وهي قبول الاعتذار والصفح عن الإساءة، لتكون ثمرة الإصلاح والود يانعة ناضجة.

ولماذا لا يقبل الإنسان عذر الآخرين، و هو معرض لأن يصدر منه ما صدر منهم؟

وأي عقوبة يريد إيقاعها بالطرف الآخر أشد من هذه العقوبة المعنوية، حيث أقر له بالذنب، و اعترف تجاهه بالحق، وتقدم إليه بطلب المعذرة والصفح؟

ثم أي كسب يسعى لنيله أكبر من هذا الكسب الاجتماعي، إذ أصبح في موقع المرتجى والملتمس منه، واتضحت أحقيته أمام الناس؟

يقول الشاعر:

ولعمري لقد أجلك من جاء   مقرا بذلة الاعتراف

إنه إذا تنكر لكل ذلك و أصر على رفض الاعتذار، فقد تتأثر موقعيته عند الله وفي أعين الناس، ويتحول من مركز القوة إلى موقع الضعف، ويتوجه إليه اللوم والإدانة لتصلبه وشدته.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من اعتذر إليه أخوه المسلم من ذنب قد أتاه فلم يقبل منه لم يرد عليّ الحوض غداً»[1].

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «من لم يقبل العذر من متنصّل صادقاً كان أو كاذباً لم ينل شفاعتي»[2].

ويقول الإمام علي عليه السلام: «أعقل الناس أعذرهم للناس»[3].

ويقول عليه السلام: «اقبل اعتذار الناس تستمتع بإخائهم»[4].

وورد عن الإمام علي ابن الحسين زين العابدين عليه السلام أنه قال: «إن

---

(١) الهندي: علي المتقي كنز العمال ج٣ ص٣٧٨ حديث رقم ٧٠٣.

(٢) المجلسي: محمد باقر بحار الأنوار ج٧٤ ص٤٧.

(٣) الآمدي التميمي عبد الواحد / غرر الحكم ودرر الكلم.

(٤) المصدر السابق.

شتمك رجل عن يمينك ثم تحوّل إلى يسارك واعتذر إليك فاقبل عذره »[1].

ويقول الشاعر:

إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه   وكان الذي لا يقبل العذر جانيا

أخلاقيات التحضر:

في الأمم المتحضرة و العالم المتقدم، يسود هذا الخلق الحضاري، و على أعلى المستويات، لأن الأجواء العامة لديهم من سياسية وإعلامية وثقافية تدفع بهذا الاتجاه.

فإذا ما حصل خلل أو خطأ في أداء أي مؤسسة أو جهاز فإن صاحب القرار فيها يعلن تحمله للمسؤولية، ويقدم اعتذاره، و قد يستقيل من منصبه.

ففي كوريا الجنوبية مثلا أدى تصادم قطار مع حافلة إلى وفاة عدد من الركاب، قبل فترة، فأعلن وزير المواصلات اعتذاره عن الحادث، وقدم استقالته.

وقبل أيام حينما فشلت القوات الإسرائيلية في اعتقال المجاهد محمود أبو هنود أحد القادة العسكريين لحركة حماس، وتسبب ذلك في مقتل ثلاثة جنود إسرائيليين، فإن رئيس القوة البرية الإسرائيلية أعلن تحمله لكامل المسؤولية واستقال من منصبه. بالطبع إن اليهود يلتزمون بهذه الأخلاقيات مع بعضهم البعض، أما في تعاملهم مع الآخرين، فمحكوم بعنصريتهم وعدوانيتهم البشعة.

---

(١) المجلسي: محمد باقر بحار الأنوار ج٧٥ ص١٤١.

وعلى مستوى الدول والأمم فقد أعلنت اليابان في العام الماضي اعتذارها عن الفظائع التي ارتكبها جنودها ضد كوريا وتايلاند والصين إبان الحرب.

كما قدمت ألمانيا الاتحادية عدة مرات اعتذارات رسمية للعديد من الدول الأوروبية ولليهود عن جرائم النازيين. وقدم الرئيس الأندونيسي عبدالرحمن وحيد اعتذاره عن العنف الذي مارسته القوات الأندونيسية ضد سكان تيمور الشرقية طيلة ٢٤ عاماً من الاحتلال.

وحتى رأس الكنيسة الكاثوليكية البابا بولس الثاني أعلن اعتذاره في العام المنصرم عن الكنيسة والتجاوزات التي ارتكبها المسيحيون تجاه الأمم الأخرى، و في خلافاتهم الداخلية.

صور ونماذج:

ونجد في تاريخنا الإسلامي وسير العلماء والأولياء صورا مضيئة، ونماذج مشرقة للالتزام بهذا الخلق الكريم، فقد بعث رسول الله ﷺ احد القادة العسكريين من أصحابه، وهو خالد بن الوليد، في السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة على رأس فرقة من الجيش صوب احدى القبائل للدعوة إلى الإسلام، ولم يأمره بقتالهم، بعثه داعيا ولم يبعثه مقاتلا لكنه أساء التصرف، وارتكب خطأً كبيراً بقتلهم وسلبهم.

قال ابن الأثير: فلما انتهى الخبر إلى النبي ﷺ، رفع يديه إلى السماء ثم قال: « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد! ».

ثم أرسل عليا ومعه مال وأمره أن ينظر في أمرهم، فودى لهم الدماء والأموال حتى إنه ليدي ميلغة الكلب، وبقي معه من المال فضلة، فقال لهم علي: هل بقي لكم مال أو دم لم يودّ؟ قالوا: لا، قال:

فإني أعطيكم هذه البقيّة احتياطا لرسول الله ﷺ، ففعل. ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: أصبت وأحسنت. [1].وفي رواية قال ﷺ لعلي عليه السلام: أعطيتهم ليرضوا عني رضي الله عنك[2].

وجاء في سيرة الإمام السيد محمد حسن الشيرازي المعروف بالمجدد «١٢٣٠هـ ـ ١٣١٢هـ» والذي كان المرجع الديني والزعيم البارز أنه في درسه العلمي، طرح مسألة ذات يوم فأشكل عليه تلميذه الشيخ محمد كاظم الخرساني صاحب كفاية الأصول، ودار بينهما نقاش سكت التلميذ في نهايته، وفي اليوم التالي بدأ الميرزا الشيرازي درسه بالاعتذار من تلميذه والاقرار بأن الحق في المسألة كان معه.

ودار نقاش مرة بين عالمين أحدهما يدعى الملا خليل القزويني والآخر الفيض محسن الكاشاني المعروف، واحتدم بينهما الجدال، وكان القزويني حادا في نقاشه وردوده، وانتهى الجدال دون نتيجة، وذهب الشيخ القزويني إلى بلده قزوين، وبحث المسألة أكثر وراجع نفسه، وتبين له أنه كان مخطئا في رأيه وموقفه، فبادر للسفر إلى كاشان منتصف الليل وطرق باب الشيخ محسن الكاشاني عند الفجر، وحينما سأل الشيخ محسن من الطارق؟ قال الملا خليل: يا محسن قد أتاك المسيء، ثم اعتذر إليه واعترف له بالحق فيما دار بينهما من نقاش. فقال له الفيض: ولماذا كلّفت نفسك عناء السفر في هذا الوقت؟ فأجاب: ما دمت اكتشفت خطأي فإن ضميري لا يرتاح ونفسي لا تستقر قبل أن أقر لك بالخطأ

---

(١) ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي/ الكامل في التاريخ ج١ ص٦٢٠ الطبعة الرابعة ١٩٩٤م مؤسسة التاريخ العربي/ بيروت.

(٢) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٢١ ص١٤٢. ووردت هذه الحادثة في صحيح البخاري في الحديث رقم ٤٣٣٩ ورقم٧١٨٩.

وأتقدم إليك بالاعتذار.

وكان عندنا في القطيف عالم فاضل هو الشيخ فرج العمران «١٣٢١هـ ـ ١٣٩٨هـ» رحمه الله، والذي كان من سجاياه الطيبة أنه حينما يختلف مع أحد في مسأله علمية دينية، ثم يتبين له خطأ رأيه وصواب رأي الطرف الآخر، فإنه يبادر إلى إعلان اعترافه واقراره، أمام الطرف الآخر، بل ويسجل ذلك في مذكراته التي كان يطبع أجزاءها في حياته تحت عنوان «الازهار الأرجية في الآثار الفرجية».ومن شواهد ذلك رسالة كتبها للشيخ علي بن يحيى رحمه الله على أثر نقاش بينهما في مسألة علمية ثم ظهر له صحة رأي الشيخ بن يحيى، وأثبت الرسالة في الجزء الحادس عشر من «الأزهار الأرجية» ص٢٤٧.

كما ذكر في الجزء العاشر ص١٩٠ نقاشا بينه وين الشيخ الميرزا محسن الفضلي رحمه الله حول مسألة فقهية، وأن الصواب كان مع الشيخ الفضلي، كما تبين له فيما بعد.

إننا بحاجة إلى ممارسة هذا الخلق الحضاري في تعاملنا مع أبنائنا وعوائلنا، وفي تعاطينا مع المحيطين بنا، من زملاء عمل وأصدقاء، وأشخاص يعملون تحت إدارتنا ومسؤوليتنا.

وكبار المجتمع وزعاماته وشخصياته أولى وأجدر بالتحلي بهذا الخلق الرفيع، ليكونوا قدوات لبقية الناس وسائر المواطنين.

بين الحقوق والواجبات

باعتبار الإنسان عضواً في مجتمعه، وجزءا من محيطه، فعلاقته مع ما حوله علاقة تفاعل بين طرفين، وذلك يعني وجود التزام متبادل له وعليه، وقد أصبح متداولاً أن يطلق على الالتزامات التي عليه مصطلح الواجبات، أي مايجب عليه تجاه الآخرين، كما يطلق على التزامات الآخرين المفترضة نحوه عنوان الحقوق، أي ما يستحقه منهم.

وفي الأصل فإن الحق والواجب يرجعان إلى معنى واحد هو الثبوت، جاء في لسان العرب: حق الأمر يَحِقُ ويُحق حقاً وحقوقاً: صار حقاً و ثبت، قال الأزهري: معناه وجب يجب وجوباً. وفي التنزيل: قال الذين حق عليهم القول: أي ثبت. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. أي وجبت وثبتت[1] .

وعن معنى الواجب و الوجوب جاء أيضاً في لسان العرب: يقال: وجب الشيء يجب وجوباً إذا ثبت، ولزم[2].

وقال المحقق الأصفهاني: وأما الحق فله في اللغة معان كثيرة، والمظنون رجوعها إلى مفهوم واحد، وجعل ما عداه من معانيه من باب

(١) ابن منظور: محمد بن مكرم/ لسان العرب ج١ ص٦٨٠.

(٢) المصدر السابق ج٦ ص٨٧٨.

اشتباه المفهوم بالمصداق، وذلك المفهوم هو الثبوت تقريباً، فالحق بمعنى المبدء هو الثبوت، و الحق بالمعنى الوصفي هو الثابت، وبهذا الاعتبار يطلق الحق عليه تعالى لثبوته بأفضل أنحاء الثبوت الذي لا يخالطه عدم أو عدمي، والكلام الصادق حق لثبوت مضمونه في الواقع ﴿وَيُحِقَّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ أي يثبته ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ثابتاً ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أي ثبت ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي ثبتت و ﴿الْحَاقَّةُ﴾ أي النازلة الثابتة «وحقيق عليّ أن لا أقول إلا الحق» أي ثابت عليّ[1].

وبناءً عليه فإن الحق والواجب يؤديان معنى واحد، وفي مجال بحثنا فإن الحقوق هي الأشياء الثابتة على الإنسان للآخرين، أو على الآخرين للإنسان، والواجبات هي الثابتة على الإنسان للآخرين، أو على الآخرين له، فالحقوق واجبات، والواجبات حقوق، والفرق إنما هو في النسبة للإنسان أو عليه.

الحقوق متوازية:

انتظام حياة الإنسان في مجتمعه يقتضي أن يتمتع بالحقوق التي له، وأن يؤدي الواجبات التي عليه، وإذا ما حصل خلل في هذه المعادلة، فسيؤدي إلى الاضطراب في حياة الفرد والمجتمع.

ففي الحياة العائلية ـ مثلاً ـ هناك حقوق متبادلة بين الزوجين يقول تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[2]، فإذا ما التزم

---

(١) الأصفهاني: الشيخ محمد حسين/ حاشية كتاب المكاسب ج١ ص٣٨ الطبعة الأولى ١٤١٨هـ دار المصطفى لإحياء التراث ـ قم.

(٢) سورة البقرة الآية٢٢٨.

كل منهما بأداء حقوق الآخر، عاشا في سعادة ووئام، أما إذا تخلف أحد الطرفين عن القيام بشيء من واجباته تجاه الآخر، فسينتج عن ذلك اضطراب العلاقة، وفقدان الانسجام، مما يلقي بظله على مجمل حياة الأسرة، وإنجاز مهماتها الاجتماعية.

وعلى الصعيد السياسي: هناك حقوق متبادلة بين الراعي والرعية، بين الحاكم والمحكوم، ورعاية تلك الحقوق من قبل الطرفين، يوفر الأمن والاستقرار، ويفسح المجال لتقدم الوطن والأمة، بينما يؤدي جور الحاكم على حقوق الشعب، أو تجاوز المواطن لحق السلطة، إلى الفتنة و الفوضى والفساد.

وهكذا الأمر في كل مجال من مجالات الحياة الاجتماعية، والعلاقات الإنسانية، فليست هناك علاقة بين طرفين يختص أحدهما بالحقوق، ويحرم منها الآخر، وحتى بالنسبة لله تعالى وهو الخالق المتفضل على عباده، فقد وعد المؤدي لحقه تعالى في العبادة والخضوع بالجزاء والثواب.

ويقرر الإمام علي عليه السلام هذه الحقيقة مخاطباً رعيته بداية حكمه بقوله: « ولكم عليَّ من الحق مثل الذي لي عليكم، فالحق أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقها في التناصف، لا يجري لأحد إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له. ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه، لقدرته على عباده، و لعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه، ولكنه سبحانه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه، وتوسعاً بما هو من المزيد أهله. ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأ في وجوهها،

ويوجب بعضها بعضاً، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض»[1].

إنه تأكيد على تبادل الحقوق المتوازية بين الحاكم والمحكوم، كمصداق لمبدأ عام يتمثل في تكافئ الحقوق ضمن أي علاقة بين طرفين.

الواجبات أولاً:

وإذا كان على الإنسان من الواجبات تجاه الآخرين، بمقدار ماله من الحقوق، فنقطة البداية لبناء علاقة صحيحة ناجحة مع الآخر، يجب أن تنطلق منه بالمبادرة لأداء الحقوق المتوجبة عليه، مما يلزم الآخر ويشجعه على التعامل بالمثل، وحينئذٍ تنتظم العلاقة وتستقيم.

ومعنى ذلك أن يفكر الإنسان بالواجبات التي عليه، قبل أن يفكر في الحقوق التي له، وأن ينجز ما عليه، قبل أن يطالب بما له.

لكن مشكلة الأكثرين أنهم يتجاهلون ويتناسون ما عليهم من واجبات، ثم يتجهون ويطالبون بما لهم من حقوق.

وهذا ما يشير إليه الإمام علي عليه السلام بقوله: «فالحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف» فكل أحد يجيد التحدث عن الحق، ووصفه وتبيينه إذا كان إلى جانبه، فهو أوسع الأشياء في مقام الوصف والتبيين، أما في مقام الالتزام بأداء الحق للآخرين وإنصافهم، فالجميع يضيقون به ذرعاً.

إن على الإنسان أن يبدأ من نفسه فليزمها بأداء حقوق الآخرين قبل أن يطالب الآخرين بحقوقه.

١ـ فهو مسؤول أمام الله تعالى عن الواجبات التي عليه، فحقوق

---

(١) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة/ خطبة ٢١٦.

الناس جزء لا يتجزأ من حقوق الله، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض» بل ورد في حديث آخر عنه عليه السلام: «جعل الله سبحانه حقوق عباده مقدمة لحقوقه فمن قام بحقوق عباد الله كان ذلك مؤدياً إلى القيام بحقوق الله»[1].

ولكي يخرج الإنسان من عهدة المسؤولية أمام الله تعالى عليه أن يؤدي للناس حقوقهم.

٢ـ وإذا ما بادر الإنسان لأداء حق الآخر، كان في ذلك تثبيت لحقه، لأن الحقوق «يوجب بعضها بعضاً، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض» على حد قول الإمام علي عليه السلام. كما يشكل ذلك دافعاً وإلزاماً قانونياً وأدبياً للطرف الآخر تجاه الإنسان.

٣ـ وأداء الإنسان للحق الذي عليه هو بمقدوره وحسب إرادته، بينما أداء الآخرين لحقوقه عليهم، هو بيدهم، وإذا كان لا يمتلك قرار الآخرين و إرادتهم فإنه يمتلك قراره وإرادته، فليكن البدء منه.

محورية الذات:

قسم كبير من الناس يوغلون في التمحور حول ذواتهم، فيرون الحق من الزاوية التي يكونون فيها فقط، ويتحدثون دائماً عن المفروض والواجبات على الغير، دون أن يلتفتوا إلى ما عليهم من حقوق وواجبات، وكأن الحق يدور معهم حيثما داروا.

فمثلاً: إذا كان دائناً يشدد على واجب المدين في المبادرة إلى أداء الدين، وحرمة المماطلة والتسويف، أما إذا كان مديناً فإنه يركز على

---

(١) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم/ حرف الجيم- رقم ٦٤.

إنظار المدين « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة » ويذم الإلحاح و التضييق على المدينين!!

وإذا جاء متأخراً وقد سبقه الجماعة إلى الطعام مثلاً: تحدث عن العجلة المذمومة وعاتب على عدم انتظاره، أما إذا جاء مبكراً وتأخر غيره، فإنه يتبرم من عدم احترام الوقت، ويدعو إلى التقيد به على حساب المتأخرين!!

وحينما يخرج بسيارته من طريق فرعي إلى طريق رئيسي تتواصل فيه حركة السير، ينتقد السائقين في ذلك الطريق على سرعتهم وعدم اعطائهم فرصة لمن يريد الخروج من الطريق الفرعي، أما إذا كان يقود سيارته في الطريق الرئيسي، ورأى من يريد الخروج من طريق فرعي، فسيواجهه ببوق سيارته المزعج، مبدياً إنزعاجه لعدم صبر الطرف الآخر وتمهله!!

وهكذا نلحظ العديد من المواقف والممارسات التي تعبّر عن محورية الذات، وتفصيل الحقوق والواجبات على قياسها.

وكم رأينا ثواراً كانوا يعارضون السلطات لديكتاتوريتها وقمعها، ويرفعون شعارات المطالبة بالحرية والعدالة، فلما أصبحوا هم في موقع السلطة والحكم جعلوا الأولوية لحفظ النظام وحماية الأمن والاستقرار، على حساب العدالة والحرية، فاختلاف موقعيتهم وتبدّل الزاوية التي ينظرون منها، أثر على رؤيتهم للقيم والمعايير.

نحو وعي حقوقي:

ولكن لماذا يتجاهل أكثر الناس الحقوق التي عليهم، أو يتساهلون في القيام بها؟

١ـ هناك عامل الجهل وضعف الوعي الحقوقي، حيث لا يعرف الكثيرون ما يتوجب عليهم تجاه الآخرين، فالعلاقات والارتباطات في مجتمعاتنا تسير بشكل عفوي، وضمن أعراف وتقاليد، ترتكز على قوة الطرف وموقعيته.

ففي الحياة الزوجية وحيث يكون الزوج في موقع القدرة، تصبح حقوق الزوجة مغيبة مهملة، وفي مجال العمل، فإنه وتبعاً لسلطة رب العمل تُتجاهل حقوق العامل، وهكذا بين الأب وأولاده، وبين المعلم وتلامذته، وبين الموظف ومديره..

إن الحاجة ماسة لثقافة حقوقية، توضح للإنسان ما له وما عليه، وتوجهه إلى الالتزام بما عليه أولاً.

ولا يعني ذلك أن يتساهل الإنسان في الحقوق التي له، ولا يطالب بها، ويسكت عن مصادري حقوقه. بل المقصود أن لا تكون المطالبة بالحقوق بديلاً عن القيام بالواجبات، ولا أن يوزع الإنسان المفروضات والمسؤوليات على الآخرين متناسياً نفسه، بل يبدأ بنفسه أولاً، ثم يطالب غيره.

٢ـ وعامل آخر يرتبط بالتربية النفسية، والبناء الأخلاقي لشخصية الإنسان، حيث يحتاج إلى التذكير بالقيم والمبادئ، وأنها يجب أن تكون المقياس والمحور لمواقفه وتصرفاته، وليس مصالحه الذاتية.

من جهة ثانية فإن اعتراف الإنسان بالحقوق التي عليه يعني تحمله لمسؤولية أدائها، بينما المطالبة بالحقوق التي له، هو تحميل للآخرين، ويشكل لوناً من ألوان التهرب من المسؤوليات.

ورد في حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «ما عبد الله بشيء

أفضل من أداء حق المؤمن »[1].

وعن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: « أعرف الناس بحقوق اخوانه وأشدهم قضاءً لها أعظمهم عند الله شأنا »[2].

٣ـ وفي أحيان كثيرة يتساهل الإنسان في حقوق القريبين منه، على أساس دالّته عليهم، وموقعيته بينهم، وكأن ذلك يعفيه عن التزاماته تجاههم. وهذا خطأ كبير، فمراعاة حقوق الأقربين أولى، لأنهم الأكثر احتكاكاً وارتباطاً بالإنسان، وإذا ما تعوّد على تجاوز حقوقهم، فسيعيشون معه معاناة دائمة، لذلك يقول الإمام علي عليه السلام: « ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك »[3].

وكذلك الحال في العلاقة مع الأصدقاء، فإن تجاوز حقوقهم اعتماداً على تغاضيهم عن ذلك، يسبب تدمير الصداقة وإنهاء الأخوة، يقول عليه السلام: « لا تضيعن حق أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقه »[4].

رسالة الحقوق:

من كنوز المعرفة، ومصادر الوعي الحقوقي في التراث الإسلامي، « رسالة الحقوق » للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام. « ٣٨هـ ـ ٩٤هـ ».

هذه الرسالة التي أوردها الشيخ الصدوق في « الخصال » بسند

---

(١) الكليني: محمد بن يعقوب/ الكافي ج٢ ص١٧٠.

(٢) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٢ ص١١٧.

(٣) لموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة ـ كتاب٣١.

(٤) المصدر السابق.

معتبر ينتهي إلى ثابت بن أبي صفية المعروف بأبي حمزة الثمالي، وأوردها أيضاً الحسن بن علي بن شعبة الحراني في «تحف العقول».

وهي تتحدث عن الحقوق التي على الإنسان «الواجبات» تجاه الآخرين، بدءاً من حق الله تعالى، ومروراً بحق النفس، وأعضاء الجسم، ثم تتناول حقوق الوالدين، والسلطان، والمعلم، والرعية، والزوجة، والأولاد، والأخ، والجار، والشريك، وانتهاء بحق المخالفين في الدين «أهل الذمة». فتستعرض خمسين حقاً بلغة تربوية رائعة، تنطوي على مضامين ومعارف عظيمة.

إنها تخاطب الإنسان لتعريفه وتذكيره بالحقوق التي عليه، وتدفعه إلى تحمل مسؤولياته تجاه الآخرين، مخاطبة وجدانية، تحرك كوامن فطرة الإنسان، وتوقظ عقله وتفكيره.

وفي مناسبات ذكريات أئمة الهدى ما أحوجنا إلى العودة لآثارهم وتوجيهاتهم، لأنها تحمل لنا القيم والمبادئ التي عاش أهل البيت من أجلها، وكرسوا حياتهم في الدفاع عنها ونشرها.

الفصل الرابع

في المسؤولية الاجتماعية

تقدم الفرد وتقدم المجتمع

المجتمع الراشد

إطفاء الحرائق الاجتماعية

العمل التطوعي في خدمة المجتمع

المجتمع واليتيم

تقدم الفرد وتقدم المجتمع

يطمح كل إنسان سوّي أن يحقق لنفسه التقدم والعزة في هذه الحياة، وأن يحمي ذاته عن المكاره والنوائب، وهو طموح سليم مشروع، ولكن ماهو الطريق إلى التقدم؟ وكيف يحقق الإنسان اهدافه ومصالحه في هذه الحياة؟

إن الطريق الطبيعي هو أن يفجّر الإنسان طاقاته وقدراته، ويتعب على نفسه لنفسه، فيتعلم ويفكر ويخطط، ويعمل ويتحرك ويجتهد، وكلما اجتهد أكثر كانت فرصه في التقدم اكبر.

لكن السؤال المطروح هو عن مدى العلاقة بين تقدم الفرد وتقدم المجتمع الذي ينتمي اليه، فهل لواقع المجتمع تأثير على مستوى الفرد وواقعه؟ أم أن الفرد يمكنه أن يشكّل حالة منفصلة فيحقق لنفسه التقدم بغض النظر عن واقع مجتمعه متقدماً كان أو متخلفاً؟

ان الأكثرية من الناس مستغرقون في همومهم الذاتية، ومتجهون إلى تحقيق مصالحهم الشخصية، دون أن يكون الهم الاجتماعي العام حاضراً في تفكيرهم، أو مدرجاً في جدول اهتماماتهم، ولسان حال كل واحد منهم: اني معني بنفسي، ببناء مستقبلي، وترتيب امور حياتي.

والنظرة الواعية للحياة، تكشف للإنسان أن هناك علاقة وثيقة

بين واقعه وواقع المجتمع، فمهما كانت قدراته وكفاءاته، ومهما حقق من تقدم وانجاز، فسيبقى متأثراً بالوضع العام لمجتمعه، لذلك ينبغي أن يكون تفكيره واهتمامه ضمن دائرتين ومحورين: البناء الذاتي لنفسه والإسهام في البناء العام للمجتمع.

ولمزيد من التوضيح نشير إلى بعض النقاط والحقائق التي تظهر عمق الارتباط بين تقدم الفرد وتقدم المجتمع.

توفير فرص التقدم:

١ ـ صحيح أن الإنسان يتقدم بجده واجتهاده، وبكفاءاته وقدراته، لكن توفّر الفرص وتهيؤ الظروف، هو الذي يمكنه من تفجير طاقاته، وتفعيل نشاطه، والمجتمع المتقدم يوفر لابنائه فرص التقدم، بينما المجتمع المتخلف تنعدم أو تقل فيه تلك الفرص.

فمثلاً في مجال التعليم، ليس طلابنا في البلاد العربية أقل ذكاءً أو نبوغاً من نظرائهم في أمريكا واليابان وأوروبا، والبعض من أبنائنا متفوق في جده واجتهاده، لكن آفاق التقدم العلمي، ومستوى البرامج التعليمية، والاهتمام بمستويات الذكاء والنبوغ، وتوفّر مجالات التعليم في جميع الحقول والتخصصات، هو الذي يعزز فرص الطالب هناك أكثر.

وفي المجال الفكري والمعرفي توجد في البلاد الإسلامية عقول جبارة، واذهان وقّادة، لكن قلة مراكز البحوث والدراسات، وضعف وسائل التعبير عن الرأي، يجعل فرص التقدم العلمي في المجتمعات الاخرى أكثر، وكشاهد على ذلك فإن بعض ابنائنا في تلك المجتمعات قد حققوا تقدماً كبيراً في حقول علمية وتكنلوجية مختلفة، وأول عربي ينال جائزة نوبل في مجال علمي هو الدكتور "أحمد زويل" المصري الذي

يعيش في أمريكا ونال الجائزة لعام ١٩٩٩م في الكيماء.

تأثير الأجواء:

٢ـ و الإنسان يتأثر بالأجواء التي يعيشها مجتمعه، فإذا كانت أجواءً صالحة، تعبق بالقيم الرفيعة، وتدفع نحو الفاعلية والرقي، فإنها تشكل أرضية مساعدة لانطلاق الفرد وتقدمه، و إذا كانت أجواء المجتمع سيئة يهيمن عليها التخلف، وتحكمها حالة الكسل والتبرير، وتشوبها المفاسد والفتن، فإنها ستترك آثارها وبصماتها على نفسية الفرد وسلوكه في الاعم الاغلب.

الفرد لا يعيش في جزيرة معزولة، أو صحراء نائية، بل هو جزء من مجموع، يتفاعل ويتناغم مع الحالة السائدة عادة، وهذا واضح في المجال الصحي مثلاً، حيث أن اختلاطه بالناس المصابين ببعض الأمراض يعرضه للإصابة عن طريق العدوى، وهكذا فإن كثيراً من الأفكار والسلوكيات يأخذها الفرد ويتطبع عليها من خلال تكيفه الاجتماعي.

النتائج والمضاعفات:

٣ـ و إذا ما حلت بالمجتمع مشكلة أو فتنة، فإن النتائج والمضاعفات ستشمل الجميع، دون فرق بين المشارك والمحايد، فوجود حالة فقر في المجتمع، قد تفرز آثاراً تطال الاغنياء، وانتشار المعاصي والمنكرات ينذر بالخطر حتى على المتدينين الصالحين.

لذلك يقول الله تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾[1]، ومن هنا اوجب الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن

(١) سورة الانفال الآية٢٥.

المنكر، وحمّل الإنسان ليس مسؤولية إصلاح نفسه فقط، وإنما السعي لهداية الآخرين وإصلاحهم أيضاً، لحماية أجواء المجتمع من التلوث والفساد.

ويشبّه رسول الله ﷺ نتائج أعمال الفاسدين على المجتمع كله، بمن يخرق سفينة فيعرضها للغرق بجميع من فيها يقول ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على ايديهم نجوا ونجوا جميعاً»[1].

وكمثال شاخص امامنا مايعانيه أبناء الشعب العراقي، حينما ابتلوا بواقع سياسي فاسد، حيث لم يسلم من مضاعفات ونتائج هذا الفساد احد منهم، وحتى من يرى نفسه بعيداً، وغير متدخل في شأن من الشؤون، فإنه لم يكن بمنجى من تلك المعاناة والمآسي.

موقعية المجتمع:

٤ ـ إذا كنت تنتمي لأمة قوية، وترتبط بمجتمع عزيز، فإن ذلك يوفّر لك الحماية والمنعة، ويفسح امامك مجالات الفرص الرابحة، اما إذا كانت امتك مهيضة الجناح، أو كان مجتمعك ضعيفاً مستضعفاً، فلن تحظ بنظرة محترمة من الآخرين، ترعى حقوقك، وتحترم كفاءتك، وبالتالي فموقعية مجتمعك ومكانته بين المجتمعات، لها دخل في تحديد

---

(١) البخاري: محمد ابن اسماعيل/صحيح البخاري ج٣ ص٢٧٨ كتاب الشركة المكتبة الثقافية ـ بيروت.

موقعيتك انت ومكانتك شئت أم أبيت.

إننا نرى الآن بوضوح كيف تحسب أي جهة في العالم الف حساب للتعامل مع أي يهودي، أو شأن من شؤون اليهود، لأنهم أصبحوا في موقعية تتيح لهم ذلك، فقبل فترة قررت الحكومة المصرية شق طريق دائري حول القاهرة، بطول ٩٥كم، لتخفيف ازدحام السير في عاصمة يحتشد في شوارعها يومياً زهاء ١٥مليون شخص، لكن هذا الطريق يمر بمقبرة قديمة لليهود في منطقة «البساتين» مضى عليها أكثر من سبعين عاماً، وتضم حوالي ٣٥٠قبراً، وارض المقبرة في الأصل ليست ملكاً لليهود، بل هبة من الحكومة المصرية، وقد عرضت الحكومة إزاحة المقبرة بمقدار ٣٠متراً فقط، إلا أن اليهود أثاروا ضجة كبرى في العالم، وشكلوا وفداً من رؤساء الجاليات اليهودية في العالم لمقابلة الرئيس المصري والمسؤولين، وأقاموا دعاوى بمختلف العناوين أمام القضاء المصري، لمنع أي مساس بمقبرة امواتهم، وكانت النتيجة ابقاء المقبرة وبناء جسر فوقها!!

دور الفرد في تقدم المجتمع:

من كل ما سبق يتجلى لنا الارتباط الوثيق بين واقع الفرد وواقع المجتمع، وأن من يفكر في بناء مستقبله، وإنجاز التقدم لذاته، عليه أن يستحضر التفكير والاهتمام بواقع مجتمعه، وأن يجعل ذلك جزءاً أساساً في برنامج حركته وسعيه.

ولكن كيف يسهم الفرد في تقدم مجتمعه؟

١ـ إن اهتمام الفرد ببناء ذاته، واجتهاده في إحراز الرقي والتقدم لنفسه، هو في حقيقته إسهام منه في تقدم المجتمع، ذلك أن تقدم المجتمع حصيلة لتقدم الافراد، فكل فرد ينجز تقدماً يضيف قوة لرصيد المجتمع،

شريطة احساسه بانتمائه الاجتماعي، وتفاعله مع الحركة العامة للمجتمع.

٢ـ ويمكن للفرد أن يوجه نشاطه وفاعليته، ضمن مسعاه الذاتي، ليصب في قناة خدمة المجتمع، وانجاح خطط تقدمه، فالطالب اذ يختار تخصصاً علمياً لدراساته العليا، عليه أن يتلمّس حاجة مجتمعه، ورجل الاعمال حين يفكّر في الاستثمار عليه أن يتجه للمشاريع التي تنشّط حركة اقتصاد المجتمع، وتعالج بعض مشاكله، والأديب والمفكر يوظف موهبته الأدبية، وابداعه الفكري، في استنهاض المجتمع، وتطوير واقعه..

٣ـ وكدور مباشر يلعبه الفرد في تقدم المجتمع، عليه أن يقتطع جزءاً من امكانياته الفكرية والعملية والمادية، ليصرفه في خدمة الصالح العام، وذلك عبر المشاركة في المؤسسات الاجتماعية، والنشاط التطوعي.

ومهما كان انشغال الإنسان بشؤونه الخاصة، فإن بامكانه صرف شيء من الوقت يومياً أو اسبوعياً من أجل الخدمة العامة.

ويتصور البعض أن تحملّهم لشيء من المسؤوليات الاجتماعية، في وقتهم أو جهدهم أو مالهم، سيكون على حساب شؤونهم وقضاياهم الخاصة، لكن هذا التصور ليس دقيقاً، فإن مردود ما ينفقونه في المصلحة العامة سينعكس عليهم، لما سبق بيانه من آثار ونتائج تقدم المجتمع على واقع الفرد، لذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ﴾[1]. كما أن ما نعتقده من لطف الله وكرمه يعطينا الثقة والاطمئنان بتعويضه على من بذل في سبيل الله ولمساعدة عباده اضعافاً

---

(١) سورة الاسراء الآية٧.

مضاعفة، يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّـذِينَ يُنفِقُـونَ أَمْـوَالَهُمْ فِـي سَـبِيلِ اللَّـهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُـنبُلَةٍ مِائَـةُ حَبَّـةٍ وَاللَّـهُ يُضَـاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وروي عن الحبيب المصطفى ﷺ انه قال: «خير الناس مـن ينفـع فكن نافعاً لهم»[2].

ان الله تعالى يبارك للانسان في وقته، حينما يصـرف جـزءاً منـه في خدمة المجتمع، ويزيد في رزقه إذا بذل منه في امور الخـير، ويمنحـه القـوة والنشاط، لسعيه في حوائج الناس وقضاياهم، يقـول الله تعـالى: ﴿وَمَـا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُـوَ يُخْلِفُـهُ وَهُـوَ خَيْـرُ الـرَّازِقِينَ﴾[3]، والآيـة وعـدٌ صادقٌ من الله سبحانه وتعالى، بالتعويض على من انفق في سبيله.

٤ ـ لدعم مسيرة التقدم في المجتمع، على الأفراد أن يشـجعوا كـل مبادرة ونشاط ايجابي، ينبثق من ارض مجـتمعهم، فالتشـجيع والتفاعـل أمر ضروري لتحفيز الإنتاجية، وتطويرها في مختلف المجالات، فالعـالم إذا التف حولـه أبناء مجتمعه، والخطيب إذا تجاوب معه المستمعون، والمفكـر إذا لاحـظ الاسـتقبال لأفكـاره، والأديـب إذا أحـس بأصـداء عطائـه، والمصنّع إذا راجت بضاعته، والمـزارع إذا اشـترى النـاس انتاجـه، كـل ذلك يشكل ديناميكية للتقدم والتطور في حركة المجتمع.

أما الاستهانة بالإنتاج المحلي، والطاقات الوطنية، لصالح الاسـتيراد من الخارج، والانشداد لما وراء الحدود، فتلك حالة انهزامية أنانيـة، قـد

---

(١) سورة البقرة الآية٢٦١.

(٢) الهندي: علي المتقي/ كنـز العمال ج١٦ ص١٢٨ رقم٤٤١٥٤ الطبعة الخامسـة١٩٨٥م مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

(٣) سورة سبأ الآية٣٩.

تبتلى بها بعض المجتمعات، حتى شاع عند الناس المثل القائل: حمامة الحي لا تطرب.

وأصبح البعض يتفاخر بأنه يتسوق من خارج بلده، أو يستهلك المنتجات من خارج وطنه، وقد يحتج بجودتها أو إتقانها، لكن الأمر في بعض الأحيان، لا يخلو من الانبهار بالخارج والتأثر بالدعاية والإعلام، ولكي يرتفع مستوى الجودة وتتطور الإنتاجية في الوطن، لا بد من التشجيع والدعم، مع تقديم الملاحظات التطويرية، والنقد البناء.

ومرة اخرى نضطر للاتيان بشاهد من حالة معادية، هي الحالة اليهودية، من أجل أخذ العبرة والدرس، فاليهود في كل مكان، بتشجيع بعضهم البعض، ودعم انتاجيتهم المحلية، وحينما بدأ السيّاح الإسرائيليون يتوافدون على الأردن في أعقاب اتفاقية السلام بين الأردن وإسرائيل، فوجئ الوسط السياحي في الأردن ـ كما تحدثت الصحف ووسائل الإعلام ـ بسياسة التقتير الذي يتميز به السائح الإسرائيلي، فهم يحضرون معهم وجبات الطعام الخاص بهم، تحت زعم أنهم يحافظون على طقوس تناول الطعام اليهودية، التي تحتم عليهم تناول الطعام اليهودي الحلال، أو الكوشر، لكنها ليست سوى تبريرات، إذ أنهم لا يحضرون مأكلهم الحلال فقط، بل وزجاجات الماء، فهل هناك ماء حلال وآخر حرام؟ وقد تحدث رئيس وزراء الأردن السابق عبد السلام المجالي مع المسؤولين الإسرائيلين حول الموضوع مشيراً إلى أن زجاجات الماء في الأردن أرخص منها في إسرائيل، ومع ذلك فالسياح الإسرائيليون وهم من المقتدرين الأثرياء يحضرون معهم زجاجات الماء!![1]

---

(١) الحياة ـ جريدة يومية ـ لندن ١٨مارس١٩٩٥ ص١٢.

الاهتمام الاجتماعي:

وأخيراً فإن الله تعالى لا يقبل أن نعيش أنانيين نفكر ونسعى في حدود الدائرة الشخصية الذاتية، إن ذلك لا يتوافق مع التدين الحقيقي الصادق، حيث يؤكد القرآن الكريم على أن تجاهل قضايا المجتمع ومناطق الضعف فيه، دليل وعلامة على كذب ادعاء الدين، يقول تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ.فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ.وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾(1) إن مجرد إهمال الأيتام وتركهم، وعدم الحث على الاهتمام بحاجات الفقراء، يعني أن التدين كاذب زائف. والرسول محمد ﷺ يعتبر غير المهتم بأمور الأمة خارجاً عن دائرة الإسلام «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»(2).

---

(1) سورة الماعون الآية٣/١.

(2) الكليني: محمد بن يعقوب/ الاصول من الكافي ج٢ ص١٦٣/ دار الأضواء - بيروت.

المجتمع الراشد

لكـي يصبح الإنسـان شخصـية مسـتقلة مؤهلـة لاتخـاذ القـرار وللتعاقد مع الآخرين لا بد وأن يصل إلى مستوى الرشد، حسب أحكام الفقه الإسلامي.

ذلك أن أحكـام المعـاملات بالنسـبة للإنسـان تختلـف بـاختلاف مراحل حياته مـن حيـث اكتمـال الأهليـة ونقصـانها، فهـو في المرحلـة الأولى، من الولادة إلى سن التمييز، يكون قاصراً، وبالاصطلاح الفقهـي «غير مميز» فلا تصح معاملاته، قانونياً لأنه فاقد الأهلية.

وفي المرحلة الثانية: من سن التمييز إلى سن الرشد، حيـث يفـرق بين الأمور، ويميز النافع من الضار، لكنه بعد لم يصل إلى مرحلة النضج والرشد، وهنا ايضاً يـرى أكثـر الفقهـاء عـدم اسـتقلاليته في التصـرف واتخاذ القرار في المعاملات، حتى وإن كان بالغاً عاقلاً، فالبلوغ والعقـل شرطان للتكليـف الشرعي بمعنى أنه ملزم بالتكاليف والأوامـر الدينيـة، لكنه إذا لم يصل مستوى الرشد، لا تكون أهليته مكتملة لامضاء قراراته وتصحيح معاملاته.

أما المرحلة الثالثة: إذا وصل إلى مستوى الرشد فإنه يكون مكتمل الأهلية، ويطلق عليه فقهياً: رشيد أو راشد، حيث تصح جميع معاملاتـه

وقراراته.

ومعنى الرشد: حسن التصرف ووضع الأمور في مواضعها، وقد يرافق البلوغ، وقد يتأخر عنه قليلاً أو كثيراً، وقد يتقدمه، لكن لا اعتبار له قبل البلوغ.

وليس للرشد سن معينة عند جمهور الفقهاء، وإنما الأمر متروك لاستعداد الشخص وتربيته وبيئته، وليس في النصوص الشرعية تحديد له.

واغلب القوانين المدنية للاحوال الشخصية في الدول تعتبر الإنسان كامل الأهلية ومستقل الشخصية في سن الثامنة عشرة، وبعضها كالقانون المصري يرفعها إلى سن ٢١سنة.

كما أن معرفة رشد الإنسان راجع إلى ملاحظة تصرفاته وممارساته، فيختبر مستواه عن طريقها يقول تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[(١)].

حيث أن أموال اليتيم الصغير تكون بيد وليه، فإذا ما بلغ، ولوحظ منه الرشد، دفعت إليه أمواله، ليتحمل هو مسؤولية التصرف فيها.

ويفرّق بعض الفقهاء بين الرشد في المجال المالي والرشد في المجال الإجتماعي، فقد يكون الإنسان حسن التصرف في الشؤن المالية، لكنه لايمتلك النضج الاجتماعي لإدارة الحياة العائلية، فهنا لا يستقل بالقرار في عقد الزواج بل لابد من إذن وليه، وإن كانت تصرفاته المالية ممضاة وصحيحة. كما أشار إلى ذلك السيد محمد كاظم اليزدي في العروة الوثقى في المسألة الثامنه من مسائل أولياء العقد.

---

(١) سورة النساء الآية ٦.

الرشد في منطق القرآن:

جاء الحديث عن الرشد في القرآن تسعة عشر مرة، وفي بعضها جاء بضم الراء وسكون الشين ﴿رُشْد﴾ كقوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنهُمْ رُشْدًا﴾[2]، وجاء في موارد اخرى بفتح الراء وفتح الشين ﴿رَشَدا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾[4] وهما مترادفان.

ويبدو أن المقصود بالرشد في منطق القرآن، ما يقابل الغي، فهو بمعنى الهدى في مقابل الضلال والانحراف، وهي مقابلة واضحة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾[5].

كما جاء استخدام الرشد في مقابل السفه، فيكون بمعنى حسن التصرف والتدبير في مقابل خفة الرأي وضعف التدبير، وذلك هو مفاد المقابلة ضمن الحديث عن رعاية شؤون الأيتام في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا.وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[6] . فقبل امتلاك

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(٢) سورة النساء الآية ٦.

(٣) سورة الكهف الآية ١٠.

(٤) سورة الجن الآية ١٤.

(٥) سورة الاعراف الآية ١٤٦.

(٦) سورة النساء الآية ٥ـ٦.

الرشد يكون الإنسان ضعيف الرأي غير ناضج التصرف، وهو ما يعّبر عنه بالسفه، فإذا تجاوز هذه الحالة اطلق عليه راشد.

الرشد الاجتماعي:

قد نتحدث عن الرشد على مستوى الافراد، فنلحظ فرداً رشيداً يميز مصلحته ويحسن التصرف والتدبير، في مقابل فرد ضعيف الرأي، لا يتخذ الموقف المناسب فيما يواجهه من ظروف واوضاع.

وقد نتحدث عن الرشد على مستوى المجتمعات والجماعات، فهناك مجتمع راشد، ومجتمع يفتقد الرشد والنضج، فكيف نقوّم المجتمعات والجماعات على هذا الصعيد؟ وما هي سمات الرشد الاجتماعي؟

في القرآن الحكيم جاء الحديث عن المجتمع الراشد ضمن قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[1].

والآية الكريمة تشير إلى اهم صفة في المجتمع الراشد، وهي الانسجام النفسي والفكري والسلوكي مع المبادئ والقوانين الشرعية..

فالمبدأ الذي يؤمن به المجتمع، تارة يكون مجرد هويّة وعنوان، وتارة يؤخذ المبدأ على أساس التلقي من الأسلاف دون وعي واقتناع، وقد يتفاعل المجتمع مع المبدأ على المستوى الروحي النفسي، لكنه من الناحية العقلية الفكرية لديه تحفظات وإشكالات، وقد يحصل العكس بوجود اقتناع فكري نظري، دون توّفر انشداد روحي نفسي، وقد يكون المبدأ وقوانينه امراً مفروضاً على ذلك المجتمع لسبب أو لآخر، وكل

---

(١) سورة الحجرات الآية ٧.

تلك الحالات تنبئ عن ضعف وخلل في بنية المجتمع وكيانه، حين يؤمن بعقيدة موروثة دون اقتناع، أو يدين بمبدأ لا يلتزم بتطبيق انظمته وقوانينه في واقع حياته، أو يخضع لشريعة بالقوة والفرض.

اما المجتمع الراشد الذي تشير اليه الآية الكريمة ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ فهو يتمتع بالصفات التالية:

١ـ حب العقيدة والمبدأ ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾ بما تحمله كلمة الحب من معاني الانجذاب النفسي، والانشداد الروحي.

٢ـ الوعي بالمبدأ ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي ادركتم بعقولكم صحة منهجكم الإيماني، وأنه الأفضل الذي تزدان به حياتكم.

٣ـ الردع الذاتي عن المخالفة والانحراف ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ وهو ناتج عن الصفتين السابقتين، فإذا كان الإنسان محباً لمبدئه، من أعماق نفسه، وواعياً بدينه في فكره وعقله، فإنه بذاته يكره المعصية، وينفر من الخروج عن حدود النظام والقانون، وهكذا فإن الحالة العامة في المجتمع الراشد، هي الالتزام والانضباط بدافع ذاتي، واجتناب المخالفة.

بالطبع حينما ينسب الخالق جلّ وعلا لنفسه التحبيب والتكريه، ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمْ﴾ و ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ﴾ فإنه لا يعني الإجبار التكويني على ذلك، وإنما المقصود تهيئة الوسائل والظروف المناسبة، والتوفيق للقبول والاستجابة.

ومن خلال الآية الكريمة، وعلى ضوء ما حدد به الفقهاء معنى الرشد، الذي يشترط توفره لاقرار اهلية التعاقد وصلاحية التصرف عند الإنسان، يمكننا الإشارة إلى أهم سمات وصفات المجتمع الراشد.

الوعي والمعرفة:

١ـ إذا كان الفقهاء يعتبرون القدرة على تمييز المصلحة، والتفريق بين النافع والضار، هو أول مستويات الرشد، التي يترتب عليها الأثر الشرعي والقانوني، لجهة الاعتراف باهلية الإنسان واستقلال شخصيته، فيمكننا أن نقتبس من ذلك تحديد أول مستويات الرشد الاجتماعي، وهو وعي المجتمع ومعرفته بالأمور والشؤون التي ترتبط بواقعه، ليتمكن من تشخيص مصلحته، والتفريق بين ما ينفعه أو يضره كمجتمع.

إن كثيراً من الناس في المجتمع يستغرقون في هموهم الذاتية الشخصية، أو ينشغلون بمسائل جانبية ثانوية، ولا يلتفتون لقضايا مجتمعهم، ولا يعون الظروف والاوضاع التي تحوط بأمتهم.

يحدثنا القرآن عن الجماعة الراشدة في العهد الإسلامي الأول، يوم كانوا أقلية في مكة الخاضعة لأجواء الشرك آنذاك، كيف كانوا مهتمين بنتائج معركة بين الروم والفرس، تجري في أدنى أرض الروم وأقرب نقاطها إلى الفرس، ومع هذا البعد الجغرافي، إلا أن المؤمنين في مكة كانوا يتابعون المعركة، وحينما انتصر الفرس المشركون على الروم الكتابيين، تأثر المؤمنون لهزيمة الروم، رغم عدم وجود تواصل أو تحالف بينهم وبينهم، مما يدل على وعي وادراك بابعاد تلك الحرب، وآثارها وانعكاساتها، لذلك انزل الله تعالى سورة كاملة من القرآن باسم سورة «الروم»، تتحدث عن تلك المعركة وعن تفاعل المؤمنين مع نتائجها، ويبشرهم بتغير المعادلة خلال فترة زمنية وجيزة، حيث سينتصر الروم في بضع سنين قادمة، يقول تعالى: ﴿الم. غُلِبَتْ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ

بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

و إذا ما أخذنا بعين الاعتبار دور الشهادة على العالم الذي أناطه الله تعالى بالمؤمنين ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[2].فإن ذلك يعني ضرورة تطلع المجتمع الإيماني إلى أرفع مستوى من الوعي، يتمكن به من مراقبة التحولات العالمية، والمعادلات الدولية، فضلاً عن وعيه بأوضاعه وقضاياه، يقول الإمام علي عليه السلام: «لا بد للعاقل من ثلاث أن ينظر في شأنه، ويحفظ لسانه، ويعرف زمانه»[3].

حسن التصرف:

٢ـ كيف يتصرف المجتمع تجاه الظروف والمشاكل والازمات؟ هل تسوده حالة الاستسلام وانتظار المعجزة من المجهول؟ أم تسيطر عليه الانفعالات والأحاسيس، ويحركه الحماس المجرد عن التخطيط السليم؟ أم يواجه التحديات بتفكير موضوعي، وبرامج حكيمة؟

ويقاس رشد المجتمع ونضجه بما يختار ويسلك من هذه الخيارات، فالانهزام أمام المشكلة، يكشف عن فقد الإرادة وضعف الثقة، بينما الوقوع تحت حالة العاطفة والانفعال، وغياب الحكمة والتعقل، قد يضاعف المشكل ويعمّق الأزمة.

وما يقتضيه الرشد هو حسن التصرف، واتخاذ الموقف المناسب في

---

(١) سورة الروم الآية ١ـ٤.

(٢) سورة البقرة الآية ١٤٣.

(٣) بن شعبة الحراني: الحسن بن علي/ تحف العقول ص١٤٤/ الطبعة الخامسة١٩٧٤م مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ـ بيروت.

الظرف المناسب، فقد يستلزم الظرف شدة وقوة، وقد يستدعي حماسة وانفعالاً، وقد يتطلب مرونة واستيعابا.

وفي سيرة الرسول محمد ﷺ اروع النماذج والأمثلة لحسن التصرف في الظروف المختلفة، فالمسلمون الأوائل مع رسول الله ﷺ كانوا كما وصفهم الله تعالى ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾[1] والمعارك والغزوات التي خاضوها تكشف عن شجاعتهم وتضحياتهم، لكن هؤلاء الاشداء على الكفار، تقبلوا صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة، بما تضمنته اتفاقية الصلح من شروط لصالح المشركين في ظاهرها وعلى حساب عزة المسلمين، حتى أن بعض الأصحاب سيطرت عليه حالة الحماس والانفعال واعترض على ماحصل، كما يذكر ابن هشام وسائر المؤرخين أن عمر بن الخطاب أتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، ألست برسول الله؟ قال: بلى، قال أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبد الله ورسوله، لن أُخالف أمره، ولن يُضيعني! قال: فكان عمر يقول: مازلت أتصدق وأصوم وأصلي واعتق، من الذي صنعت يومئذٍ مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً[2].

لقد رفض سهيل بن عمرو المفاوض من قبل قريش أن يكتب في وثيقة الصلح: بسم الله الرحمن الرحيم، واصر أن يكتب بدلها: باسمك اللهم. فوافق الرسول ﷺ على ذلك. ثم اعترض سهيل على كلمة

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٩.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ج٣ ص٣٤٦ / الطبعة الاولى١٤١٥هـ/ دار احياء التراث العربي - بيروت.

« هذا ماصالح عليه محمد رسول الله » قائلاً: لو شهدت انك رسول الله لم اقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم ابيك فقط: ووافق الرسول على ذلك ايضاً. واشترط سهيل: أن من أتى محمدا من قريش بغير أذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، ومع أنه شرط مجحف إلا أن الرسول ﷺ وافق عليه، وحدث أن جاء أحد المسلمين المضطهدين في مكة، يجر القيود والأغلال لاجئاً إلى معسكر المسلمين، وهو أبو جندل بن سهيل بن عمرو، فقام له ابوه سهيل وضرب وجهه، وطلب من الرسول أن يرده إلى قريش، وأن يرفض لجوءه، فوافق الرسول على ذلك، فصاح أبو جندل: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ مما أثار حماس المسلمين لكن الرسول ﷺ قال له: يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجا[1].

ومع كل ذلك اعتبر الله تعالى هذا الصلح فتحاً مبيناً ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [2]،لأن نتيجته كانت في الاخير لمصلحة الإسلام، هكذا يجب أن يتحكم العقل في الموقف، وليس العاطفة المجردة، والمجتمع الراشد هو الذي يقوّم الظرف ويتخذ الموقف المناسب تجاهه بموضوعية وتفكير.

الاستفادة من الإمكانيات:

٣ـ لكل مجتمع إمكانياته الطبيعية والبشرية، والتي تختلف وتتفاوت من مجتمع لآخر، وما يميّز المجتمع الراشد عن غيره، هو الاهتمام باكتشاف الإمكانيات، والعمل على استثمارها والاستفادة

---

(١) المصدر السابق ص٣٤٧.

(٢) سورة الفتح الآية ١.

منها، وتوظيفها في مصلحة تقدم المجتمع.

إن بعض المجتمعات تهمل مواردها الطبيعية، وتتجاهل كفاءات وقدرات ابنائها، بينما تسعى المجتمعات الواعية، لتنمية مواردها، والاستفادة من امكانياتها الطبيعية والبشرية باكبر قدر ممكن.

وهذه قبرص الجزيرة الصغيرة القريبة منا تشكل مثالاً للاستفادة من الإمكانيات الطبيعية، فهي تقع في الركن الشمالي الشرقي من البحر الابيض المتوسط، وتبعد عن جنوب تركيا ٦٤كم وعن غرب سوريا ١٠٠كم، ويقل سكانها عن السبعمائة الف نسمة، وهم في مستوى معيشي مرتفع كالاوربيين، وتبلغ نسبة المتعلمين فيهم ٩٠٪ ومع انهم ليست لديهم ثروات نفطية ومعدنية، لكنهم استثمروا الطبيعة الخلابة وحولوا بلادهم إلى منطقة سياحية هامة، تشكل السياحة فيها مورداً اقتصادياً اساسياً، إضافة إلى الإنتاج الزراعي الوفير.

وفي مجال استثمار الموارد البشرية تقدم اليابان مثلاً رائعاً، حيث تكمن قوتها العلمية والاقتصادية، في تطوير مستوى الأداء التكنلوجي والصناعي لأبنائها، فاليابان الآن قوة اقتصادية عظمى في العالم رغم قلة مواردها الطبيعية، فهي تستورد كثيراً من الخام التي تحتاجها الصناعات.

وكم تمتلك مجتمعات امتنا الإسلامية من قدرات وامكانيات هائلة، لكن ماتحتاجه هو التوجه لاستثمارها وتنميتها وتوظيفها من أجل التقدم والازدهار.

إطفاء الحرائق الاجتماعية

من طبيعة الناس أنهم يُهرعون حينما يشبُّ أي حريق في محيطهم من أجل تطويقه وإطفائه. وذلك لأنهم يدركون مخاطر الحرائق، من تلف أرواح، وخسائر ممتلكات، ولأنهم يخشون من امتداد الحريق، باستمرار اشتعال النار، فهي تبدأ من نقطة ما، لكنها لا تقف عندها، بل تلتهم ما حولها، وتزداد اتقاداً واشتعالاً، وتقول هل من مزيد.

ولأن الناس يقدِّرون حاجة بعضهم إلى بعض في هذه المواقف الخطيرة، حيث لا يتمكن صاحب المحل الذي اندلع فيه الحريق من مقاومته وإخماده بمفرده.

من هنا تكونت في المجتمعات البشرية فرق مهمتها إطفاء الحرائق حينما تندلع في أي مكان، ويبدو أن أول منظمة لمكافحة الحريق تأسست في روما القديمة، حيث كون الإمبراطور أوغسطس الذي تسلم الحكم عام ٢٧ قبل الميلاد، مجموعة من الناس سماها الحراس، كانت مهمتها مراقبة الشوارع، والإبلاغ عن أي حريق يشب، ولا يعرف العلماء كثيراً عن تطورات منظمات إطفاء الحريق قبل حريق لندن الكبير عام ١٦٦٦م. وقد دمر هذا الحريق معظم أنحاء المدينة، وترك آلاف الأفراد بلا مأوى. وقبل الحريق لم يكن بلندن أي منظمة لمكافحة الحرائق.

وتعد اليوم فرقة الإطفاء بمقاطعة لندن رائدة فرق الإطفاء في العالم، ومع التطورات الكبيرة التي حصلت في مجال عمل فرق الإطفاء حيث تحولت إلى جهاز ومؤسسة رسمية ضخمة يطلق عليها «الدفاع المدني» تقوم بأغراض ومهمات عديدة، ولها ميزانيتها المعتمدة في مختلف الدول، لكن ذلك لم يلغ المبادرات التطوعية من قبل أفراد المجتمع في التصدي لخطر الحرائق وأمثالها، ففي البلدان المتقدمة هناك فرق الإطفاء المتطوعة، التي يعمل فيها رجال ونساء بصورة غير دائمة، فعندما يشب حريق يُهرع المتطوعون تاركين أعمالهم ومنازلهم، ويتوجهون بسرعة إلى فرقة الإطفاء، ويعطى بعضهم مكافآت رمزية. ويوجد في بريطانيا ٥٠,٠٠٠ متطوع، في حين يوجد في ألمانيا الغربية مليون متطوع[1].

بالطبع لسنا بصدد الحديث عن فرق إطفاء الحرائق، وما ذكرناه مجرد مدخل وتمهيد، ننطلق منه إلى تساؤل هام يرتبط بأوضاعنا الاجتماعية، وهو لماذا لا يبدي الناس اهتماماً مماثلاً بالحرائق الاجتماعية؟، فحينما تشب نار العداوة والخلاف بين أفراد أو فئات من المجتمع، لماذا يأخذ الآخرون موقف التفرج وكأن الأمر لا يعنيهم؟ ولماذا لا يبادرون لتطويق هذا النزاع ـ الحريق كما يُهرعون لإطفاء الحرائق المادية؟

وإذا كانت الحرائق المادية تصيب الأشخاص والممتلكات، فإن الحرائق الاجتماعية تنال شخصيات الناس المعنوية، وتمزق وحدتهم وانسجامهم، وتعرِّض السلم الاجتماعي للخطر، وتكون أرضية وسبباً لمشاكل واعتداءات وخسائر وحروب.

---

(١) الموسوعة العربية العالمية ج١٧ ص٣٠٧ـ٣١٤ الطبعة الثانية ١٩٩٩م الرياض.

كما أن الخلافات الاجتماعية هي الأخرى كالنار تمتد إلى ما حولها وتحرقه بلهيبها، ولا تبقى عند حدود الشخصين أو المجموعتين المختلفتين، فكم من خلاف بسيط بين زوج وزوجته تحوّل إلى نزاع ومعركة بين أسرتيهما وقبيلتيهما؟ وكم من نزاع بين فئتين محدودتين أدخل مجتمعا في أتون حرب أهلية مدمرة؟

كذلك فإن المتورطين في النزاع قد لا يستطيعون إنهاء نزاعهم فيما بينهم وإن أرادوا ذلك، لما يحدث في نفوسهم من انفعالات وحواجز، فيحتاجون إلى مساعدة من خارجهم لترطيب الأجواء، وامتصاص التشنجات، وتقريب كل طرف إلى الآخر.

من هنا فالحاجة ماسة إلى وجود فرق إطفاء للحرائق الاجتماعية، تطوق الخلافات والنزاعات، وتطفئ نيران الفتن والاحتراب، وتحمي السلم الاجتماعي.

إصلاح ذات البين:

ويطلق الإسلام على هذه المهمة المقدسة عنوان «إصلاح ذات البين» حيث وردت نصوص كثيرة تؤكد على ضرورة القيام بهذا الدور، و تبشّر القائمين به بأرفع الدرجات وأعظم الأجر والثواب عند الله تعالى.

١ـ يقول تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. سورة الأنفال الآية١.

إن القيام بدور إصلاح العلاقات بين أبناء المجتمع، وسد ثغرات الخلاف والنزاع، هو انعكاس للالتزام بتقوى الله، لذلك يأتي الأمر بالإصلاح بعد الأمر بتقوى الله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ

بَيْنِكُمْ﴾كما أن الإصلاح شرط من شروط تحقق المجتمع الإيماني ﴿إِنْ كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.سورةالحجرات الآية١٠.

فالعلاقة بين المؤمنين هي علاقة أخوّة، ولا يصح أن تأخذ غير هذا المنحى، لذلك تستخدم الآية ﴿إِنَّمَا﴾ الدالة على الحصر، وإذا ما وقع خلاف أو سوء تفاهم بين مؤمن وآخر، فلا يجوز لسائر المؤمنين أن يتفرجوا على نشوب هذا الخلاف والنزاع، ويراقبوا بلا مبالاة استمراره وتطوره، ويعتبرون أنفسهم غرباء وغير معنيين به، إنه نزاع بين طرفين يرتبطان معكم برباط الأخوة، فكلاهما أخ لكم، وهل يصح السكوت على معاناة أخويكم؟ وهل يمكن أن تكونوا بعيدين عن آثار ذلك النزاع؟

إذاً ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فذلك مظهر لالتزامكم بتقوى الله، وإعداد لكم لاستحقاق رحمته ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فالمجتمع الذي تسوده أجواء الوحدة والانسجام يكون متنعما بالرحمة والأمن، بينما إذا جزأته الخلافات والنزاعات فهو يعيش حالة العذاب والشقاء.

أفضل دور وخير عمل:

٢ـ لماذا يتطوع المؤمن لله تعالى بالصيام، ويتنفل بالصلاة، ويجود بالصدقة؟ أليس بدافع القربة إلى الله ونيل ثوابه ورضاه؟ إذا كان ذلك هو الهدف فإن النصوص الدينية تؤكد على أن من أفضل طرق التقرب إلى الله وكسب رضاه وثوابه، هو السعي لإصلاح ذات البين. فهو أفضل من سائر العبادات والطاعات.

عن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إصلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والصوم»[1].

وفي حديث آخر عن أبي الدرداء عنه ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ إصلاح ذات البين»[2].

وعن ابن عمر عنه ﷺ: «أفضل الصدقة إصلاح ذات البين»[3].

وعن الإمام جعفر الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عمل امرؤ عملاً بعد إقامة الفرائض خيراً من إصلاح بين الناس، يقول: خيراً، وينمي خيراً»[4].

٣ـ وإذا استلزم السعي لإصلاح ذات البين إنفاق شيء من المال، لترضية طرفي النزاع أو أحدهما، أو لأي نفقة في هذا المجال، فإنه يمكن أخذ تلك النفقات من الحقوق الشرعية، حيث ينطبق على ذلك عنوان سهم في سبيل الله من الزكاة، كما يمكن استئذان أي مرجع ديني فيما يرتبط بحق الإمام من الخمس، وفي الرواية التالية إشارة إلى رضا الإمام عليه السلام بصرف ماله في الإصلاح بين المؤمنين.

عن ابن سنان عن أبي حنيفة سابق الحاج «وهو سعيد بن بيان» قال: مر بنا المفضّل وأنا وختني «زوج ابنته أو زوج أخته» نتشاجر في ميراث، فوقف علينا ساعة ثم قال لنا: تعالوا إلى المنزل، فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم، فدفعها إلينا من عنده، حتى إذا استوثق كل

---

(١) الهندي: علي المتقي/ كنز العمال ـ حديث رقم ٥٤٨٧.

(٢) المصدر السابق حديث رقم٥٤٨٠.

(٣) المصدر السابق حديث رقم٥٤٨٣.

(٤) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٣ ص٤٣.

واحد منا من صاحبه، قال: أما إنها ليست من مالي، ولكن أبا عبد الله (جعفر الصادق عليه السلام) أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء أن أصلح بينهما وأفتديهما من ماله، فهذا من مال أبي عبد الله عليه السلام[1].

٤ـ ولأن المصلح يريد التقريب بين الطرفين المتنازعين، وخلق ثقة متبادلة بينهما، فقد يضطر لإعطاء انطباع إيجابي عن كل طرف للآخر، بالتحدث عنه بكلام طيب لم يقله، وتشجيعا من الدين لمسعى الصلح، اعتبر هذا التصرف مستثنى من الكذب الحرام، بل لم يعتبره الشرع كذباً ما دام يصب في مصلحة الإصلاح والوئام.

فقد جاء في صحيح البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيراً أو يقول خيراً»[2].

ومثله ما ورد في الكافي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام إنه قال: «المصلح ليس بكاذب»[3].

وفي تعليقه على هذا الحديث قال العلامة المجلسي: أي إذا نقل المصلح كلاماً من أحد الجانبين لم يقله، وعلم رضاه به، أو ذكر فعلاً لم يفعله للإصلاح، ليس من الكذب المحرّم بل هو حسن، وقيل، إنه لا يسمى كذباً اصطلاحاً، وإن كان كذباً لغةً، لأن الكذب في الشرع ما لا يطابق الواقع، ويذم قائله، وهذا لا يذم قائله شرعاً[4].

ويعزز هذا المعنى حديث آخر مروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه

---

(١) الكليني: محمد بن يعقوب/ الأصول من الكافي ج٢ ص٢٠٩.

(٢) البخاري: محمد بن اسماعيل/صحيح البخاري/كتاب الصلح حديث رقم٢٦٩٢.

(٣) الكليني: محمد بن يعقوب/ الأصول من الكافي ج٢ ص٢١٠.

(٤) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٣ ص٤٦.

قال: «الكلام ثلاثة: صدق وكذب وإصلاح بين الناس. قيل له: ما الإصلاح بين الناس؟ قال: تسمع من الرجل كلاماً يبلغه فتخبث نفسه فتلقاه فتقول: سمعت من فلان قال فيك من الخير كذا وكذا، خلاف ما سمعت منه»[1].

الدور المفقود:

لا يخلو مجتمع من المجتمعات البشرية صغيراً كان أو كبيراً، ومهما كانت درجة وعيه أو تدينه، من وجود خلافات بين بعض أفراده أو بعض فئآته، والاجتماع الإسلامي وإن كان يفترض فيه الالتزام بتعاليم الإسلام، والتحلي بآدابه وأخلاقه، لكن ذلك لا يعني وصول أفراده إلى درجة العصمة، فهم بشر تعتورهم كل نواقص الطبيعة البشرية.

فحدوث النزاعات والخلافات أمر وارد وطبيعي في الاجتماع الإسلامي، بين الأفراد المؤمنين والفئات المسلمة، مع كونهم جميعا ضمن إطار الإيمان والإسلام. كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾. سورة الحجرات الآية٩.

لكنه لا يصح السكوت والتفرج تجاه حالات الخلاف والنزاع التي قد تحدث في أوساط المجتمع، بل يجب القيام بدور إيجابي لتجاوز تلك الحالات، وتلافي آثارها ومضاعفاتها، بأن يبادر المخلصون الواعون للسعي في إصلاح ذات البين، فهو واجب كفائي لا يجوز أن يهمل أو يترك حينما تتهدد وحدة المجتمع والكيان الإسلامي، وإذا لم ينهض به من يكتفى به فمسؤولية التخلف عن هذا الواجب الديني الإنساني على عاتق الجميع. لأن الله تعالى يوجه الخطاب للعموم ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ

(١) الكليني: محمد بن يعقوب/ الأصول من الكافي ج٢ ص٣٤١.

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. سورة الحجرات الآية۹.

ومجتمعاتنا الإسلامية اليوم، تعاني الكثير من الخلافات والنزاعات ذات الطابع السياسي أو الديني أو الاجتماعي، فهناك خلافات بين أفراد، وصراعات بين فئآت، ونزاعات بين دول وحكومات.

لكن دور السعي لإصلاح ذات البين في صفوف أبناء الأمة مفقود أو ضئيل جداً مع الحاجة الماسّة إليه، لذلك تنتشر الخلافات، وتتطور النزاعات، على حساب وحدة المجتمع وتماسكه وقوته.

فكم من أسرة تشتت شملها، وانهار كيانها العائلي، لخلاف بين الزوجين كان يمكن معالجته لو بذل سعي لإصلاح ذات بينهما؟

وكم من صراع تفاقم بين جماعتين دينيتين، واحدث شرخاً عميقاً في بنية المجتمع، وانقساماً بين طاقاته الفاعلة، واضر بالحالة الدينية العامة، دون أن يقابله أي تحرك جاد، لتطويق الصراع، وتقريب وجهات النظر؟

وقد تصل الأمور إلى ذروتها بنشوب حروب أهلية أو قبلي أو مذهبي أو سياسي لا تبقي ولا تذر كما هو الحال في الصومال وأفغانستان والجزائر. وكما حصل من حروب مدمرة طاحنة بين بعض البلدان والدول الإسلامية.

إننا بحاجة إلى تفعيل مبدأ إصلاح ذات البين، وأن يبادر المخلصون الواعون من أبناء المجتمع، إلى تشكيل فرق ومجموعات لإطفاء الحرائق الاجتماعية، والتقريب بين مختلف الفئات والجهات، وداخل العوائل والأسر.

وظيفة القيادات الدينية:

عالم الدين لمعرفته بمقاصد الإسلام ومناهجه، ولحرصه على وحدة الأمة وقوة المجتمع، ولكونه في موضع الأسوة والقدوة، لذلك يفترض فيه أن يأخذ زمام المبادرة، لممارسة هذا الدور الإصلاحي المطلوب. خاصة وأنه يتمتع بثقة واحترام ونفوذ اجتماعي يمكنه توظيفه في إنجاح مساعي الإصلاح وحماية السلم الاجتماعي.

وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على القيام بدور إصلاح ذات البين والمبادرة إليه، فقد أخرج البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن أناساً من بني عمرو بن عوف، كان بينهم شيء، فخرج إليهم النبي ﷺ في أناس من أصحابه يصلح بينهم، فحضرت الصلاة ولم يأت النبي ﷺ فجاء بلال فأذن بالصلاة ولم يأت النبي ﷺ [1].

وفي حديث آخر: أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: اذهبوا بنا نصلح بينهم»[2].

كما ورد في سيرة الإمام علي عليه السلام اهتمامه بمعالجة وإصلاح حتى الخلافات البسيطة، حيث مرّ ذات يوم بأصحاب التمر، فإذا هو بجارية تبكي، فقال: يا جارية ما يبكيك؟ فقالت: بعثني مولاي بدرهم فابتعت من هذا تمراً، فأتيتهم به فلم يرضوه، فلما أتيته به أبى أن يقبله، قال: يا عبد الله إنها خادم وليس لها أمر، فأردد إليها درهمها وخذ التمر، فقام إليه الرجل فلكزه، فقال الناس: هذا أمير المؤمنين، فربا الرجل واصفرّ وأخذ التمر، ورد إليها درهمها. ثم قال: يا أمير المؤمنين ارض عني،

---

(١) البخاري: محمد بن إسماعيل/ صحيح البخاري كتاب الصلح ـ حديث رقم٢٦٩٠.
(٢) المصدر السابق ـ حديث رقم ٢٦٩٣.

فقال: ما أرضاني عنك إن أصلحت أمرك »[1].

ومرة أخرى يجد امرأة تقول: إن زوجي ظلمني وأخافني وتعدى عليّ وحلف ليضربني، فيذهب معها الإمام وكان الوقت قيظاً في حرارة الشمس، حتى يصلح بينها و بين زوجها)[2].

لذا فإن المتوقع من علماء الدين القيام بمبادرات لإصلاح ذات البين، في أوساطهم أولاً، بمعالجة أي خلاف أو سوء تفاهم يحدث بين عالم وعالم آخر، ولا يصح لهم أن يتفرجوا على الخلافات التي تحصل بين بعضهم، فإنها تسيء إلى سمعة الدين، وتترك أسوأ المضاعفات والآثار في المجتمع، وإن يتوجهوا ثانيا لحماية السلم الاجتماعي، ببذل الجهود لتطويق الصراعات، وتوحيد الكلمة، والحفاظ على تماسك المجتمع وانسجامه.

وقد سجل بعض علمائنا الأخيار صفحات مشرقة في ميدان السعي لإصلاح ذات البين، وعلى أعلى المستويات، فأحد علمائنا أطلق عليه لقب « مصلح الدولتين » وهو الإمام الشيخ موسى كاشف الغطاء « توفي ١٢٤٤هـ »، نجل الشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء، وكان المرجع الديني الأعلى في النجف الأشرف، وحصل في عهده نزاع بين الدولة الإيرانية والدولة العثمانية، وزحفت إيران على العراق حتى وصلت بلدة بعقوبة وحاصرت بغداد فقام الشيخ موسى بدور مشكور للصلح بين الدولتين تركيا وإيران، وحقنت ببركات مسعاه الدماء، وتراجعت

---

(١) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٤١ ص٤٨.

(٢) بن شهرأشوب: محمد بن علي/ مناقب آل أبي طالب ج٢ ص١٢٢ الطبعة الثانية ١٩٩١م، دار الأضواء ـ بيروت.

القوات الإيرانية، وعادت أجواء السلم والوئام، وذلك سنة ١٢٣٧هـ.

بالطبع فإن السعي لإصلاح ذات البين يكلف جهوداً، ويستلزم تضحيات، لكن استهداف رضا الله تعالى، والاهتمام بوحدة الأمة، وحماية السلم الاجتماعي، هو الذي يدفع المصلحين لتحمل المشاكل و الصعوبات برحابة صدر وقوة جنان.

إن الجمعيات الخيرية في بلادنا يمكنها أن ترعى تكوين لجان أهلية لإصلاح ذات البين، والعلماء الأفاضل يستطيعون إطلاق مبادرات اجتماعية بهذا الاتجاه، وللخطباء والمثقفين والأدباء دور هام في تشجيع هذا المنحى المبارك.

العمل التطوعي في خدمة المجتمع

تواجه الإنسان في هذه الحياة مسؤوليات كبيرة تنتظم في عدة دوائر، فهو مسؤول بالدرجة الأولى عن نفسه لتسيير شؤون حياته، وتوفير متطلباته الذاتية مادية ومعنوية، ثم هو مسؤول عن عائلته وأسرته، بأن يتكفل باحتياجاتهم ويرعى مصالحهم، وباعتباره جزءاً من مجتمعه ومحيطه، فهو معني بالشأن الاجتماعي العام، ولأنه ينتمي إلى الدائرة الإنسانية، فلا بد له من تحمل مسؤولياته على الصعيد الإنساني العالمي.

ولكن هل الإنسان قادرٌ ومؤهلٌ للقيام بهذه المسؤوليات في دوائرها المتعددة؟ وعلى جبهاتها المختلفة؟

نعم وبكل تأكيد فقد هيأه الله تعالى ليكون خليفته في الأرض، ومنحه قدرات عقلية ونفسية هائلة، يستطيع بها أن يسخّر إمكانات الحياة والكون، وأن يحقق أضخم الإنجازات، ويؤدي أكبر الأعمال والمهام، ولسنا بحاجة إلى أدلة وبراهين نظرية لإثبات هذه الحقيقة، لأننا نرى مصاديقها في الواقع الخارجي، فتاريخ البشرية في الماضي والحاضر يحفل بشخصيات قيادية لامعة، قامت بأدوار عظيمة على مستوى العالم، وتجاوزت حدود ذواتها، وإطار عوائلها، ونطاق مجتمعاتها، وأصبحت في موقع الريادة والتأثير على صعيد الإنسانية جمعاء والعالم كله.

فالإمكانية والمؤهلات متوفرة لدى الإنسان لتحمل كل هذه المسؤوليات، شرط الإدراك والوعي، وإرادة التصدي، وبذل الجهد والنشاط، وهنا يتفاوت الناس، فهناك من يفتقد الوعي والإدراك حتى لمسؤليته تجاه نفسه، ويقصّر في خدمة ذاته، ويصبح عبئاً وكلّاً على الآخرين يحمّلهم مشاكله، ويعتمد عليهم في معالجة قضاياه، وهناك من يتعاجز أو يعجز عن القيام بمهام أسرته وعائلته، لقصور في وعيه، أو تقصير في حركته وأدائه، كما أن هناك من لا يبالي بواقع مجتمعه ولا دور له في خدمته. وفي مقابل هذه الحالات توجد صور مشرقة ونماذج رائعة، لأناس يمتلكون الوعي والإدراك لمسؤولياتهم الذاتية والعائلية والاجتماعية والإنسانية، فيقومون بأدوار كبيرة، ويقدمون خدمات جليلة.

ويتحدث القرآن الكريم مقارناً بين هاتين الصورتين المتناقضتين لمن يعجز حتى عن خدمة نفسه، ويكون عبئاً على غيره، ولمن يجسّد الفاعلية والحركة الدائبة بالاتجاه الصحيح، ساعياً لتوجيه الآخرين وقيادتهم، يقول تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ، أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1]

أسباب العزوف:

وإذا كان تحمل المسؤولية ضمن دائرة الذات و العائلة أمراً يفرض نفسه على الإنسان، لأن متطلبات الحياة الشخصية، والالتزامات

---

(١) سورة النحل الآية٧٦.

العائلية، تضغط عليه بشكل مباشر، كما تنعكس عليه مردودات ونتائج حركته في هذا الاتجاه بصورة فورية، لذلك لا يكاد يفلت من دائرة هذه المسؤولية إلا الشاذ النادر، فإن المعادلة على العكس من ذلك تماماً فيما يتعلق بتحمل المسؤولية تجاه المجتمع، حيث لا ينبري ولا يتصدى لها إلا ثلة قليلة من الواعين المخلصين.

وتكمن جملة من الأسباب وراء الظاهرة العامة للعزوف عن العمل في الخدمة الاجتماعية منها:

١ ـ الاستغراق في الحالة الذاتية، فينصرف الإنسان إلى خدمة مصالحه الذاتية المباشرة، ولا يرى نفسه معنياً بخدمة مصالح الآخرين.

٢ ـ تعدد الاهتمامات والانشغالات وخاصة في هذا العصر، حيث لم تعد الحياة ببساطة الماضي، ومحدودية آفاقه، فقد اتسعت دائرة المستلزمات المعيشية ووسائل الراحة والرفاه، وأصبحت تربية الأولاد ومتابعة تعليمهم تأخذ وقتاً وجهداً كبيراً من المهتمين بمستقبل أبنائهم، كما أن البرامج الإعلامية المتطورة عبر البث المباشر، ووسائل الاتصالات المتقدمة كالإنترنت، تقتطع من أوقات المنجذبين والمنشدين إليها الشيء الكثير.. وهكذا يعيش الإنسان في دوامة من الالتزامات والاهتمامات التي تصرفه وتشغله عن التوجه للعمل في ميادين خدمة المجتمع.

٣ ـ وتعترض طريق العمل في الخدمة الاجتماعية العديد من المعوقات والمثبّطات في غالب بلدان ومجتمعات العالم الثالث، فالقوانين والأنظمة غير مشجعة، والروتين السائد يضاعف العناء والمشقة، والمواقف السلبية التي يتخذها البعض من الناس تجاه العاملين تسبب الإحباط والانزعاج بينما تتوفر أمام الراغبين في الخدمة العامة للمجتمعات المتقدمة، كل وسائل التشجيع وأجواء التقدير والدعم.

النتائج والمكاسب:

صحيح أن العمل التطوعي لخدمة المجتمع يأخذ من الإنسان وقتاً وجهداً قد يكون في حاجة إليه لشؤونه الذاتية، وأنه يحمّله أعباءً ومسؤوليات مرهقة، ويضعه في مواقف حرجة بعض الأحيان، إلا أن له نتائج ومكاسب عظيمة، إذا أدركها الإنسان استسهل كل الصعوبات، واستعذب كل المشاق.

أولاً: يحقق السعي في خدمة المجتمع وقضاء حوائج الناس، راحة نفسية وسعادة معنوية كبيرة، ففي أعماق الإنسان ميول ونوازع خيّرة، وبين جنبيه ضمير أخلاقي حسّاس، وإذا ما أنجز الإنسان أي خدمة تطوعية، أنقذ بها محتاجاً، أو أعان ضعيفاً، أو ساعد مظلوماً، فإن ذلك يسعد ضميره، وينعش أحاسيسه النفسية، ويشعره بالكثير من السعادة واللذة الروحية.

ثانياً: العمل الاجتماعي ينمّي عند الإنسان قدرات ذهنية ومهارات ومؤهلات سلوكية، تزيد من نقاط قوة شخصيته، حيث يكسبه الخبرة والتجربة، ويجعله أكثر معرفة وإحاطة بواقع المجتمع الذي يعيش ضمنه، والظروف التي تكتنفه.

ثالثاً: وبمقدار ما يؤدي الإنسان من دور اجتماعي، يأخذ موقفاً، وينال مكانة، في وسط المجتمع، وتتسع دائرة علاقاته وارتباطاته، وتظهر مواهبه وكفاءاته.

رابعاً: إن وجود مؤسسات الخدمة الاجتماعية، وإرساء قواعد التعاون والتكافل الاجتماعي، يوفر الاطمئنان في نفس الإنسان على مستقبله ومستقبل ذويه، حيث هو معرّض لحالات الضعف، وحدوث المشاكل والمخاطر، التي قد لا يستطيع مواجهتها بإمكانياته الذاتية،

فعمله وأمثاله هو الذي يصنع الضمانات لتوفير الدعم والمساندة، عند الحالات الطارئة لأبناء المجتمع.

ولعل هذا ما تشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾[1].

فإذا كنت مهتماً بمستقبل أبنائك الصغار من بعدك، فاجتهد في إقرار نظام تكافل اجتماعي، لحماية الأيتام، وخدمة مصالحهم، وذلك خير ضمانة لأطفالك، لو احتاجوا إلى الحماية والرعاية لا قدّر الله.

وبنفس المضمون نفهم ما قاله رسول الله ﷺ: «وتحنّنوا على أيتام الناس يُتحنّن على أيتامكم». فإضافة إلى الدور الغيبي، هناك الأثر الاجتماعي الواضح المتمثل في تكريس العادات والسنن الطيبة الحسنة.

خامساً: والإنسان المؤمن يدفعه إلى التطوع لخدمة الناس تطلعه إلى ثواب الله تعالى وجزائه، حيث تؤكد النصوص الدينية، على أن خدمة الناس والسعي في قضاء حوائجهم، هو من أفضل الأعمال التي تقرّب الإنسان إلى ربه، وتوجب له المزيد من ثوابه ورضوانه.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قضى لمؤمن حاجة قضى الله له حوائج كثيرة أدناها الجنة»[2].

وتؤكد نصوص كثيرة على أن مساعدة الناس وخدمتهم أرجح فضلاً عند الله تعالى من العبادات والنوافل، كالحديث المروي عنه ﷺ:

---

(١) سورة النساء الآية٩.

(٢) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧١ص٢٨٥.

« من قضى لأخيه المؤمن حاجة كان كمن عبد الله دهراً »[1] ، وعنه ﷺ: « من مشى في عون أخيه ومنفعته فله ثواب المجاهد في سبيل الله »[2].

وورد في حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: « قضاء حاجة المؤمن أفضل من ألف حجة متقبلة بمناسكها وعتق الف رقبة لوجه الله »[3].

التطوع ظاهرة إنسانية:

التطوع لغة: تفعّل من الطاعة. وهو ما تبرع به من ذات نفسه مما لا يلزمه فرضه[4]. وفي الاصطلاح الشرعي: يطلق على الأعمال والعبادات التي يحبذها الشرع دون أن يعتبرها فرضاً واجباً على المكلف، وهي النوافل والمستحبات، يقول تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾[5]. أي من زاد على المقدار الواجب.

أمّا على الصعيد الاجتماعي فيقصد من التطوع: ذلك الجهد أو الوقت أو المال الذي يبذله الإنسان في خدمة مجتمعه دون أن يُفرض عليه، ودون انتظار عائد مادي في المقابل.

والتطوّع الآن ظاهرة إيجابية منتشرة في أغلب المجتمعات الإنسانية، وقد أصبحت مادة لتخصص علمي، يدرس دوافعها وآثارها ومعوقاتها

---

(١) المصدر السابق ص٣٠٢.
(٢) المصدر السابق ج٧٣ص٣٦٧.
(٣) المصدر السابق ج٧١ ص٢٨٥.
(٤) ابن منظور: محمد بن مكرم/ لسان العرب ج٤ص٦٢٦.
(٥) سورة البقرة الآية١٨٤.

وسبل تطويرها، ويرصد تجاربها وأساليبها.

فـإلى جانـب المؤسسـات الرسميـة الحكوميـة، هنـاك منظمـات ومؤسسات أهلية تطوعية تقوم بالعديد مـن الأنشـطة والمهـام في سـبيل خدمـة القضـايا الإنسـانية والاجتماعيـة، وفي إحصـائية عـن عقـد الثمانينات، بلغ عدد المنظمات والهيئات غير الحكومية حـوالي٥٠ ألـف منظمـة وهيئـة في البلـدان الناميـة فقـط، تعمـل في الميـادين التنمويـة المختلفـة، ويقـدر عـدد الأفـراد المسـتفيدين مـن خـدماتها حـوالي «١٠٠مليون نسمة».

وتعج المجتمعات الغربيـة بـالكثير مـن المؤسسـات والهيئـات الـتي تعمل في مجالات الخدمة الاجتماعيـة والإنسـانية داخـل بلـدانها وعلـى مستوى العالم، ففي أمريكا وحدها هناك «٣٢,٠٠٠» مؤسسة خيرية بلغت ممتلكاتهـا عـام ١٩٨٩م أكثـر مـن «١٣٨» مليـار دولار. كمـا وشـارك في العمل التطوعي حوالي «٩٣» مليون أمريكي يشـكلون نسـبة ٣٠٪ مـن مجمل الأمريكيين، ينفقون سنوياً «٢٠» بليون ساعة في العمـل التطـوعي لصالح الأطفال والفقراء والتعليم وقضـايا أخـرى(١)، كمـا يقـدر معـدل التـبرع المـالي لكـل أمريكـي «٥٠٠» دولار سـنوياً. وقبـل سـنتين تـبرع الأمريكي" تيد تورنر" مؤسـس «   » بثلـث ثروتـه إلى المنظمـات الإنسانية في الأمم المتحدة ويساوي مبلـغ مليـار دولار. وقـال "تـورنر" في بيان التبرع أن زوجته شاركته في القرار وفرحـت بـه، ويعـني بـذلك أنها لم تعترض ولم تقل لـه: مالنـا وللأمـم المتحـدة وليبـق المليـار دولار لأولادنا!

---

(١) زغـبي: جـيمس/ أهميـة العمـل التطـوعي عنـد المـواطن الأمريكـي- الشـرق الأوسط٥/٥/١٩٩٧م.

وكانت عائلة "روكفلر" قد تبرعت قبل نصف قرن بالأرض التي أنشئ عليها مبنى المنظمة الدولية الأمم المتحدة.

وواضح أن لسيادة هذه الروح التطوعية الجماعية أثر كبير في تقدم المجتمع الأمريكي، فعندما زار" إلكسيس توكفيل" الكاتب الفرنسي الولايات المتحدة في منتصف القرن التاسع عشر لاحظ أن الأمريكيين يشاركون في كثير من الجمعيات التي ينظمونها لخدمة أغراض مجتمعاتهم: زراعية ومالية ودينية واجتماعية وجمعيات من كل نوع وفي كل اتجاه. وعلّق "توكفيل" على هذا معتبراً أن هذه الجمعيات تمثل خاصتين جديدتين في المجتمع الأمريكي ستؤديان إلى تقدمه بسرعة متفوقاً بذلك على أوربا، التي كانت تسيطر على العالم في ذلك الوقت. هاتان الخاصتان هما فن التنظيم الاجتماعي، والرغبة في العمل الجماعي الطوعي وغير الطوعي[1].

وجاء في تقرير حديث لجمعية فرنسا للشؤون الاجتماعية أن ١٠ملايين ونصف المليون فرنسي يتطوعون في نهاية الأسبوع للمشاركة في تقديم خدمات اجتماعية مختلفة تخص الحياة اليومية، من مجالات التربية والصحة والبيئة والثقافة والترفيه وغيرها.

وتتراوح أعمار ٥١ ٪ من المتطوعين ما بين الخامسة والثلاثين والتاسعة والخمسين. ويمثل الطلبة نسبة ٢١٪ وتتراوح أعمار المتطوعين منهم ما بين ١٨ و٢٥ عاماً [2].

وتنطلق الاعمال التطوعية في تلك المجتمعات من الدوافع الخيّرة

---

(١) صالح: حمدي/ المواطنون وجمعياتهم والتقدم- الحياة ١٤١٩/٩/٢٩هـ.

(٢) الشرق الأوسط- جريدة- ١٩٩٨/٣/٣١م.

الموجودة في اعماق كل انسان، ومن تقدم مستوى الوعي الاجتماعي، وبعضها لاغراض مصلحية، ومكاسب مادية.

حال مؤسساتنا الخيرية:

يفترض أن تشهد مجتمعاتنا الإسلامية إقبالاً على العمل التطوعي الاجتماعي أكثر من المجتمعات الغربية، لما في تعاليم ديننا الإسلامي الحنيف من حث كبير على نصرة المظلومين، ومساعدة الفقراء، وخدمة المحتاجين، حتى اعتبر القرآن الكريم ذلك مقياساً لصدق التدين، وأن من لا يهتم بمناطق الضعف في المجتمع، كاذب في تدينه، وإن تظاهر بطقوس الدين وشعائره، يقول تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ. وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[1].

إضافة إلى الحاجات الكبيرة في مجتمعاتنا والتي تتطلب الكثير من الجهود والطاقات لتلبيتها ومعالجتها، فهناك حالات الفقر والعوز، ومشاكل العلاقات والخلافات الاجتماعية، وقضايا التعليم والتوجيه الديني والسلوكي، وأمور البيئة، وأوضاع المحتاجين إلى الرعاية من مسنين ومعوقين وأيتام، إلى سائر مناطق الحاجة والفراغ.. إن كل ذلك يستلزم تعبئة الجهود والطاقات، وشحذ العزائم والهمم، لسدّ النواقص وتنمية المجتمع وتطويره.

وقد تأسست بحمد الله في مجتمعنا مؤسسات خيرية اجتماعية كالنوادي الرياضية، والجمعيات الخيرية، ولجان كافل اليتيم، وصناديق الزواج الخيري، ومهرجان الزواج الجماعي، وهيئات ولجان للنشاط الديني والثقافي، ومع التقدير والامتنان للجهود الطيبة التي يبذلها

---

(١) سورة الماعون الآية١ـ٣.

القائمون على العمل في هذه المؤسسات التطوعية، إلا أننا نلحظ أن درجة الإقبال على العمل التطوعي ضمن هذه المؤسسات لا يزال محدوداً وغير متناسب مع التوجه الديني لمجتمعنا والحاجات الملحة القائمة بالفعل.

وتتضح هذه الحقيقة في قلة انضمام عناصر جديدة لإدارات هذه المؤسسات، وضعف رفد لجانها ومجالات عملها بالطاقات والكوادر التي تطوّر مسيرة العمل، وتواصل تقدمه.

إن بعض الجمعيات الخيرية تواجه مأزقاً وحرجاً عندما يحين موعد انتخاب أعضاء لإدارة جديدة، حيث لا يتقدم أحد لترشيح نفسه، أو لا يكون عدد المتقدمين كافياً للمواقع الشاغرة في الإدارة!!

إنه أمر مؤسف جداً حيث يعجّ مجتمعنا بالطاقات والكفاءات، والعناصر المؤمنة والواعية، فلماذا الإحجام عن التصدي للمسؤوليات الاجتماعية؟ ولماذا نتقاعس عن دعم هذه المؤسسات الخيرية التي تشكل تجسيداً لمبادئ التعاون والتكافل والتراحم الاجتماعي؟

أعذار ومبررات:

يعتذر البعض من الناس بانشغالاتهم والتزاماتهم الدراسية أو العملية والعائلية عن المشاركة في العمل الاجتماعي، لكن هذا العذر غالباً ما يكون وسيلة وتبريراً للتهرب عن المسؤولية، وإلاّ فإنّ العاملين فعلاً في المؤسسات الخيرية، ليسوا خالين من الالتزامات، ولا عاطلين عن العمل..

إن الإنسان إذا امتلك التطلع لثواب الله ورضوانه، وأدرك مسؤوليته الدينية والاجتماعية، فإنه بحاجة إلى شيء من تنظيم وقته،

وهندسة اهتماماته وأولوياته، فالكثيرون يضيعون أوقاتهم وجهودهم في أمور وقضايا ثانوية هامشية بينما يعتذرون بعدم الفرصة للقيام بواجباتهم الاجتماعية..

إن تنظيم الوقت، والحرص على الانضباط الدقيق يعطي للإنسان مجالاً كبيراً للإنجاز واستثمار حياته، والذين يقومون بالأعمال الكثيرة، ويحققون النتائج الهائلة في حركتهم ونشاطهم، لا يفعلون المعجزات، وإنما يحسنون الإدارة والتنظيم لأوقاتهم.

كما أن الاستعداد للتضحية وبذل الجهد في سبيل خدمة المجتمع أمر مطلوب يفرضه وعي الإنسان والتزامه الديني، وانتماؤه الاجتماعي.

وقد يعتذر البعض بما قد يسبب لهم العمل الاجتماعي من إشكاليات واعتراضات من قبل هذه الجهة أو تلك، لكن المؤمن الواعي يعرف أن الأجر والثواب يستلزم تحمل الأذى والمشاق، والمصلحون طوال التاريخ كانوا عرضة للاتهام والتجريح، لكن ذلك يصدر من الجهلة أو المغرضين، ولا يفتّ من عضد العاملين المصلحين.

اننا ندعو العناصر الواعية والمخلصة من أبناء المجتمع للالتفاف حول هذه المؤسسات الخيرية الاجتماعية، وأن ينخرطوا فيها، ويتحملوا أعباء إدارتها وتطويرها، و إذا كانت للبعض اشكالات على برامج هذه المؤسسات، فليمارسوا التصحيح والتغيير من داخلها، إنها توفر الفرصة المناسبة للتعاون على البر والتقوى، وللتدريب على اكتساب روح العمل الجمعي، وتكاتف القدرات والكفاءات، كما تساعد في معالجة الكثير من المشاكل والمصاعب التي تعيشها الفئات الضعيفة في المجتمع.

المجتمع واليتيم

- هل يمكن لليتيم أن يصبح عظيماً؟ أو يكون شخصاً ذا تأثير وفاعلية في المجتمع؟
- هل في اليتم دلالة على ضعف الرعاية والمقام عند الله؟
- ما هو الدور المنتظر من المجتمع تجاه الأيتام؟

الحالة الطبيعية أن ينشأ الولد في أحضان والديه، وفي كنف أسرته، التي تحوطه بالرعاية والعناية، وتغمره بالعطف والحنان، وتقوّمه بالإرشاد والتوجيه.

إلاّ أنّ الإرادة الإلهية قد تقتضي أن يفقد الإنسان أحد والديه أو كلاهما في صغره، فيصبح يتيماً.

ويذكر اللغويون لليتم معان كثيرة منها الهم والإبطاء والحاجة والانفراد. فيقال (هذا عمل يتيم) أي ليس له نظير فهو منفرد. وتطلق العرب على من فقد أباه يتيماً، ولا تطلق ذلك على من فقد أمه، هذا بالنسبة للبشر، أما بالنسبة للحيوانات فتطلق العرب على من فقد أمه منها يتيماً، لأن الأم في عالم الحيوان تتحمل الرعاية دون الأب. وفي المصطلح الشرعي يطلق اليتيم على من فقد أباه قبل بلوغه.

حيث يخلف فقد الأب فراغاً حقيقياً لا يمكن سده، ذلك أنه في

حالة فقد الأم فإن الأب يوفر الحاضنة ويسد النقص، فلا يصبح الابن محتاجاً للآخرين. مع الاعتراف بما للأم من خصوصية نفسية وعاطفية. أما مع فقد الأب فالولد معرّض للاحتياج والنقص.

ويلازم حالة اليتم عادة أمران:

- شعور بالنقص العاطفي، فاليتيم لا يتمتع بما يتمتع به الآخرون من عاطفة وحنان من قبل آبائهم.
- افتقاد بعض متطلبات الحياة واحتياجاتها من لوازم المعيشة ووسائل الترفيه وبعض الخدمات التي يقدمها الآباء غالباً.

كيف يفكّر اليتيم؟

إن الشعور الذي ينتاب اليتيم قد لا يكون مجرد شعور متخيل، بل واقع ملموس يعيشه ويعاني آثاره، غير أن هذا الواقع لا يصح الاستسلام والإذعان له، بل ينبغي مواجهته على الصعيدين النفسي والعملي.

أولاً: على اليتيم أن يسلّم بأنّ هذه الحالة هي قضاء وقدر إلهي، وهي للبشر امتحان وابتلاء من الله جل شأنه. ابتلاء لليتيم في كيفية تقبله لمشيئة الله تعالى، فهل يرضى ويسلّم لإرادة الله؟ أم يحمل روح الرفض والاعتراض؟ وابتلاء للناس في كيفية تعاملهم مع هذا اليتيم، فهل يقومون بما حثّهم الله عليه ندباً أو أوجبه فرضاً؟!

إذاً لا ينبغي لليتيم أن يشعر بالنقص في قيمته عند ربه فاليتم لا يدل على الدونية وضعة المقام عند الله. حيث يذكر التاريخ أن كثيراً من أولياء الله الصالحين كانوا أيتاماً، فنبي الله إبراهيم عليه السلام ولد يتيماً مات أبوه تارخ وهو في بطن أمه، ثم عاش في بيت عمه آزر وهو المشار إليه

في الآية الكريمة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1]

ولأن عمه آزر قد ربّاه أطلق عليه أنه أبوه، وإلاّ فهو عمه، حيث لا يكون المشرك عابد الصنم أباً للنبي، كما هو قول أئمة أهل البيت عليهم السلام، ويؤيدهم في ذلك كثير من علماء أهل السنة. يقول الآلوسي: (والذي عوّل عليه الجم الغفير من أهل السنة أن آزر لم يكن والد إبراهيم عليه السلام، وادعوا أنه ليس في آباء النبي صلى الله عليه وآله وسلم كافر أصلاً لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات والمشركون نجس)[2].

وكذلك نبي الله موسى عليه السلام الذي لا تجد دوراً لأبيه في القرآن أو نصوص التاريخ عند ولادته ونشأته، رغم المخاطر التي حفت بأمه أثناء ولادته، والملابسات التي اكتنفت نشأته.

ومن الواضح أن نبي الله عيسى عليه السلام ولد من غير أب. أما نبينا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أفضل الخلق، وأعزهم على الله، وأحبهم إليه، فقد مات أبوه وهو في بطن أمه، وماتت أمه وعمره ست سنوات، ثم عاش في كفالة جده عبد المطلب، ومن بعده عمه أبي طالب.

ثانياً: على اليتيم أن يفجر طاقاته وكفاءاته، حتى يحيل النقص كمالاً، ويصنع من الهمّ والمعاناة طاقة خلاّقة. وليس ذلك بعيداً فكثير ما تكون حالة الضعف والقصور دافعة نحو البذل والعطاء، فكم من يتيم معدم بزّ أقرانه من أبناء الأغنياء الموفورين. فمن العظماء الشهيد

---

(١) سورة الأنعام الآية٧٤.

(٢) الألوسي البغدادي: السيد محمود/ روح المعاني في تفسير القرآن ج٧ ص١٩٤ الطبعة الرابعة ١٩٨٥م دار إحياء التراث العربي- بيروت.

المعاصر السيد محمد باقر الصدر الذي لم تقعد به وفاة والده عن النبوغ والتفوق، فوصل إلى ما لم يصل إليه أقرانه الذين كانوا في ظل آبائهم. وكذلك العلاّمة الشهير الشيخ محمد جواد مغنية والذي فقد أمه ثم فقد أباه في صغره، لكن ذلك لم يحل بينه وبين النجاح والتقدم على نظرائه وأنداده. إذاً علينا أن نشعر اليتيم أن بإمكانه أن يتفوق، ويصل إلى مراتب عالية إذا توجه إلى ذلك، وفجّر طاقاته الكامنة، وبلور قدراته ومواهبه، فاليتم لا يعدو أن يكون امتحاناً وابتلاءاً من الله سبحانه وتعالى لليتيم وللناس من حوله.

مسؤولية المجتمع:

أولاً: دور الأم: تقوم الأم بدور كبير في توجيه اليتيم نحو تفجير طاقاته وكفاءاته، ورسالتنا إلى أم اليتيم: أن عليها أن تعوّض ابنها عما قد يشعر به من نقص في العاطفة والحنان، وأن تعكف على تربيته تربيةً صالحة جادة، وتساعده على أن يشقّ طريقه بنجاح، مع ملاحظة عدم الإفراط في الدلال بذريعة التعويض عن النقص العاطفي. فإهمال الرقابة، وإعطاء الحرية المطلقة، والتهاون بالأوامر والنواهي، وإغداق المال، قد يكون له نتائج سلبية جداً على شخصيته. إن من الضروري للأم أن توازن بدقة بين حقوق الطفل وواجباته، وأن تراعي ما يريده ابنها، وما هو محتاج إليه حقاً، فما كل ما يطلبه يحتاج إليه، وقد لا يرغب فيما يحتاج إليه. فليس كل إعطاء مصلحة، ولا كل حرمان مفسدة. وكم من أم كرّست حياتها، وضاعفت جهدها لرعاية أبنائها بعد فقد أبيهم، وصنعت منهم شخصيات ناجحة مؤثرة.

ثانياً: دور المجتمع: من أجلى مظاهر الإيمان في المجتمع رعاية المحتاجين، وفي طليعتهم الأيتام، فهم أشد حاجة للرعاية والاهتمام.

حيث يحتاج الفقير إلى النفقات المادية الحياتية.بينما تمتد حاجات اليتيم لتشمل الجوانب المادية والعاطفية. والمجتمع الخاضع لمقاييس الدين والإيمان يشعر بالمسؤولية تجاه الأيتام ويتحسس آلامهم، وينسب للإمام عليه السلام قوله:

ما إن تأوهت من شيء رزئت به   كما تأوهت للأيتام في الصغر

وفي قول الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَل لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾[1]، تنديد بالمجتمع المادي الجاهلي المعرض عن القيم والمبادئ الأخلاقية. وقد جعل الله تعالى إهمالهم لليتيم عنواناً لانحرافهم، وأول شيء يذكره من مساوئهم.

ومن أبرز مفردات مسؤولية المجتمع نحو الأيتام ما يلي:

١ـ توفير الحنان والعاطفة للأيتام، وعدم توجيه الإساءة إليهم حيث يولي الإسلام اهتماماً كبيراً للمشاعر والأحاسيس. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ﴾[2] وإهمال الأيتام دليل على أن المجتمع غير صادق في تدينه قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾[3] أي يهمله ويرده بجفاء. وهذا الفعل يكشف عن قسوة القلب وتبلّد العاطفة، بينما قد لا يحتاج اليتيم شيئاً سوى المواساة القلبية، ليعوّض بعض ما فقده، قال الإمام علي عليه السلام: «ما من مؤمن ولا مؤمنة يضع يده على رأس يتيم ترحماً إلا كتب الله له بكل شعرة مرت يده عليها حسنة»[4].

(١) سورة الفجر الآية١٧.

(٢) سورة الضحى الآية٩.

(٣) سورة الماعون الآية١ـ٢.

(٤) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٢ ص٤.

وقال عليه السلام في وصيته الأخيرة قبيل وفاته: «الله الله في الأيتام، فلا تُغبّوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم»[1] ويشير الإمام (عليه السلام) بهذا إلى الحاجة المادية «لا تغبوا أفواههم» كما يشير إلى الرعاية الشاملة الكاملة بعدم تضييعهم.

٢ـ تلبية المتطلبات والاحتياجات المادية التي يحتاجونها. فقد تكون الاحتياجات سكناً ملائماً، أو ثياباً مناسبةً، أو طعاماً صحياً، أو ما شابه ذلك. يقول صلى الله عليه وآله: «من عال يتيماً حتى يستغني عنه أوجب الله عز وجل له بذلك الجنة»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وقال بإصبعيه: السبّابة والوسطى[3].

٣ـ توفير الإرشاد والتوجيه الثقافي والسلوكي، ولعله الأمر الأكثر أهمية، وأشد خطورة، فالولد ذكراً كان أو أنثى، بحاجة إلى التوجيه والإرشاد، في حداثة سنه، ومقتبل حياته، وخاصة فترة المراهقة، ويفترض أن يقوم الأب بشكل رئيسي بهذا الدور تجاه أولاده، ومع غيابه يخشى على الأولاد من الضياع، وخاصة في هذا العصر، حيث تسود دواعي الإغراء والغواية والانحراف.

فعلى ذوي الأيتام خاصة كإخوانهم وأعمامهم وأخوالهم وسائر أقربائهم أن ينتبهوا لهذا الجانب المهم، فيصرفوا قسطاً من جهدهم واهتمامهم لتوفير التوجيه التربوي والسلوكي لهؤلاء الأيتام.

---

(١) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة ـ كتاب ٤٧.

(٢) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٢ ص٤.

(٣) البخاري: محمد بن اسماعيل/ صحيح البخاري حديث رقم ٦٠٠٥.

الولاية على اليتيم:

عند فقد الأب تكون الولاية على اليتيم منحصرة في جده لأبيه، و إذا لم يكن الجد موجوداً، فإن الولاية تكون للقيّم من احدهما، وهو الذي اوصى احدهما بأن يكون ناظراً في أمر الصغار من أولاده، ومع فقد الوصي تكون الولاية والنظر في شأن اليتيم للحاكم الشرعي، يتولاها بنفسه أو يعيّن أحداً ولياً على اليتيم.

أما الأم والجد للأم والأخ، فضلاً عن الأعمام والأخوال، فلا ولاية لهم على اليتيم، ما لم يكن هناك وصية لأحدهم بذلك، من قبل الأب أو الجد للأب، أو تعيين من قبل الحاكم الشرعي.

وحينما يكون على اليتيم ولي بعد أبيه وجده، فإن تصرفاته في شؤون اليتيم يشترط فيها لكي تكون نافذة شرعاً، أن تستهدف مصلحة اليتيم، أما إذا كان هناك ضرر على اليتيم، أو عدم مصلحة له، في أي تصرف من قبل الولي، فلا يكون نافذاً شرعاً.

ويلزم على ولي اليتيم (أن يصونه عما يفسد أخلاقه فضلاً عما يضر بعقائده)[1].

أموال اليتيم:

تحدث القرآن الكريم في آيات عديدة مؤكداً على حماية أموال اليتيم وحفظها وعدم التفريط فيها، وكما سبق فإن الولاية على أموال اليتيم بعد الأب والجد، تكون للوصي المكلف بذلك من قبل احدهما، فإن لم يكن هناك وصي، فالولاية للحاكم الشرعي. هذا في فقه اهل البيت عليهم السلام، اما في المذهب الحنفي فالولاية على أموال الصغير تكون

(١) السيستاني: السيد علي/منهاج الصالحين المعاملات/ مسألة ١٠٧٨.

للاب، ثم وصيه بعد موته، ثم وصي وصيه، ثم جده (ابو ابيه)، ثم وصي جده، ثم وصي وصيه، ثم الوالي، ثم القاضي أو وصي القاضي. وعند المالكية والحنابلة: الولاية بعد الأب لوصيه، ثم للحاكم، ولا تثبت الولاية المالية للجد والاخ العم إلا بايصاء الأب. وقال الشافعية: إن الولاية بعد الأب للجد، ثم وصي من تأخر موته من الأب أو الجد، ثم القاضي أو نائبه ولا ولاية لسائر العصبات كالأخ والعم، كما لا ولاية للام(١).

ولكون اليتيم صغيراً ضعيفاً فإن ذلك قد يغري بعض المتولين على أمواله من ضعاف النفوس والايمان باساءة التصرف فيها، لذلك يوجه القرآن الكريم الخطاب إلى هؤلاء الأولياء، محذراً لهم من هذا التعدي الخطير.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾(٢)

وفي آية اخرى يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾(٣).

ويقول تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾(٤).

ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن المسؤولين والعاملين في لجان

---

(١) الزحيلي: الدكتور وهبة/ الفقه الاسلامي وادلته ج٥ ص٤٢٦ـ٤٢٧.

(٢) سورة النساء الآية١٠.

(٣) سورة الانعام الآية١٥٢.

(٤) سورة النساء الآية٢.

كافل اليتيم، مخاطبون بهذه الآيات الكريمة ومطالبون بالحفاظ على ما يردهم من أموال مخصصة للايتام، وأن يهتموا بالدقة والاحتياط في صرفها لما فيه خير الأيتام ومصلحتهم.

لجان كافل اليتيم:

يمكن لكل فرد أن يقوم بواجبه تجاه يتيم واحد أو تجاه بعض الأيتام ويثاب على عمله. ولكن تشكيل المؤسسات، وتنظيم اللجان والهيئات، التي تعمل على تلبية حاجات الأيتام، وتوفير الخدمات المناسبة لهم، يساعد على ضم الجهود إلى بعضها، مما يؤدي إلى زيادة كفاءة العمل، وتحقيق الأهداف بشكل أفضل. ولهذا العمل قيمة معنوية كبيرة في حل مشاكل الأيتام.

إن وجود لجنة تهتم بالأيتام، يعني وجود جهة توجه الأفراد والتجمعات نحو هذه الفئة، وتحث مختلف الشرائح على دعمها. وقد رأينا أن لجان كافل اليتيم في منطقتنا استطاعت أن تطور وتنوع الخدمات التي تقدم للأيتام. فمعظم هذه اللجان تقدم مساعدات مالية شهرية، وأخرى طارئة، فضلاً عن الإعانات الصيفية والشتوية. وتقوم بصيانة المساكن وغير ذلك.

كما أن وجود لجنة لكفالة الأيتام هو طمأنة للأيتام. فهم يشعرون أن ثمة جهة ومؤسسة ترعاهم، وتتابع شؤونهم، وهذا في حد ذاته مواساة معنوية كبيرة.

بالطبع فإن الجهود تتطور وتتكامل إذا انضمت إلى بعضها. ووجود لجنة يعني ضم كافة الطاقات والكفاءات التي يمكن أن تسهم في إنجاح هذا المشروع، مما يعني إدخال عنصر التخطيط والمشورة وهذا إرساء لأسلوب مهم في العمل.

تقدير وتذكير:

في الوقت الذي نعرب فيه عن تقديرنا للدور الكبير الذي تقوم به لجان كافل اليتيم، حيث ملئت فراغاً هاماً، وتحملت عن المجتمع مسؤولية عظيمة، فإننا نذكّر هذه اللجان بضرورة مضاعفة الجهد، وتطوير النشاط، خاصة فيما يرتبط برفع كفاءة الأيتام، وتقدمهم على صعيد التعليم وبناء القدرات والمهارات، بمتابعة مسيرتهم الدراسية، وتشجيعهم على التميز والتفوق، ومساعدتهم في تحصيل فرص الدراسات الجامعية والعليا.

ومن ناحية أخرى الاهتمام بإحاطتهم بأجواء الرعاية التربوية، والتوجيه السلوكي، بوضع خطط وبرامج للتوعية والإرشاد، وملاحظة ما قد يطرأ على حياتهم وسلوكهم من نواقص وثغرات، من أجل المعالجة والإصلاح.

ونأمل أن يتفاعل المجتمع بصورة أكبر مع هذه اللجان (كافل اليتيم) بدعمها مالياً، وبرفدها بالعناصر المخلصة الكفوءة، والاقتراحات المفيدة البناءة، لتقوم بواجبها على خير وجه.

وكان الله في عون كل يتيم حتى يتجاوز محنة يتمه بسلامة ونجاح، ووفق الله المؤمنين لتحمل مسؤولياتهم تجاه الأيتام في مجتمعهم، وأمدّ الإخوة الأعزاء العاملين في لجان كافل اليتيم بالمزيد من توفيقه ورضاه.

المصادر

١ـ القرآن الكريم.

٢ـ ابن أبي الحديد: عبد الحميد/ شرح نهج البلاغة، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت/ الطبعة الثانية ١٩٦٥م.

٣ـ ابن ابي شيبة: الحافظ ابو بكر/.الكتاب المصنّف في الاحاديث والآثار، الدار السلفية ـ الهند/ الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

٤ـ ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي/ الكامل في التاريخ، مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت/ الطبعة الرابعة ١٩٩٤م

٥ـ ابن شهر أشوب: محمد بن علي/ مناقب آل أبي طالب، دار الأضواء/ الطبعة الثانية ١٤١٢هـ.

٦ـ ابن عاشور: محمد الطاهر/ تفسير التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ ـ بيروت/ الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

٧ـ ابن عقيل: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، انتشارات سعيد بن جبير ـ قم.

٨ـ ابن منظور: لسان العرب المحيط، دار الجيل ودار لسان العرب ـ بيروت.

٩ـ ابن هشام: عبد الملك المعافري: السيرة النبوية، دار احياء

التراث العربي-بيروت/ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
١٠- الأصفهاني: الشيخ محمد حسين/ حاشية كتاب المكاسب، دار المصطفى لإحياء التراث- قم/ الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
١١- الألوسي البغدادي: السيد محمود/ روح المعاني في تفسير القرآن، الطبعة الرابعة ١٩٨٥م/ دار إحياء التراث العربي- بيروت.
١٢- الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات-بيروت/ الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
١٣- البخاري: محمد بن إسماعيل/ صحيح البخاري، دار الكتب العلمية-بيروت/ ١٤٢٠هـ.
١٤- جابر: د.جابر عبد الحميد - كفافي: د.علاء الدين/معجم علم النفس والطب النفسي، دار النهضة العربية-القاهرة ١٩٩٠م.
١٥- الحر العاملي: محمد بن الحسن/ تفصيل وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت ؟ لإحياء التراث-بيروت/ الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.
١٦- الحراني: الحسن بن علي بن شعبه/ تحف العقول عن آل الرسول، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات-بيروت/ الطبعة الخامسة ١٣٩٤هـ.
١٧- حوحو: المهندس أسامة/ مآثر العلماء، مؤسسة بحسون- بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
١٨- الحياة: جريدة يومية تصدر من لندن
١٩- الخوئي: ميرزا حبيب الله/ منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، مؤسسة الوفاء-بيروت/ الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٢٠ـ الرحيلي: د. عبدالله ضيف الله/ الأخلاق الفاضلة قواعد ومنطلقات لاكتسابها، مطبعة السفير-الرياض/ الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
٢١ـ الريشهري: محمدي/ ميزان الحكمة، مكتب الاعلام الاسلامي-بيروت/ ١٤٠٣هـ..
٢٢ـ الزحيلي: الدكتور وهبة/ الفقه الاسلامي وأدلته، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ/ دار الفكر-دمشق.
٢٣ـ زغبي: جيمس/ أهمية العمل التطوعي عند المواطن الأمريكي-مقال-جريدة الشرق الأوسط: ٥ / ٥ / ١٩٩٧م.
٢٤ـ السبحاني: الشيخ جعفر/ بحوث في الملل والنحل، الدار الإسلامية-بيروت/ الطبعة الثانية ١٩٩١م.
٢٥ـ السجستاني: أبو داود سليمان بن الأشعث/ سنن أبي داود، دار الجنان - بيروت/ الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
٢٦ـ السعدي: الشيخ عبد الرحمن بن ناصر/ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار الذخائر-مؤسسة الريان-بيروت/ ١٤١٨هـ.
٢٧ـ السيستاني: السيد علي الحسيني/ منهاج الصالحين، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ مكتب آية الله العظمى السيد السيستاني-قم.
٢٨ـ الشرق الأوسط: جريدة يومية تصدر من لندن.
٢٩ـ الشوكاني: محمد بن علي بن محمد/ تفسير فتح القدير، المكتبة العصرية- بيروت/ الطبعة الاولى ١٤١٨هـ.
٣٠ـ الشيرازي: السيد محمد الحسيني/ السبيل إلى إنهاض المسلمين، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ /قم.
٣١ـ الشيرازي: السيد محمد/ من أخلاق العلماء، مكتبة جنان

الغدير ـ بيروت/ الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
٣٢ ـ الشيرازي: ناصر مكارم/القواعد الفقهية، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ قم
٣٣ ـ صالح: حمدي/ المواطنون وجمعياتهم والتقدم ـ مقال ـ جريدة الحياة: ٢٩ / ٩ / ١٤١٩هـ.
٣٤ ـ الطباطبائي: اليسد محمد حسين/ الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت/ الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
٣٥ ـ الطبرسي: الفضل بن الحسن/ مجمع البيان في تفسير القرآن، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت.
٣٦ ـ الغزالي: أبو حامد/ المستصفى من علم الأصول، تحقيق د. حمزة حافظ/ الجامعة الإسلامية ـ كلية الشريعة ـ المدينة المنورة.
٣٧ ـ فضل الله: السيد محمد حسين/ خطوات على طريق الإسلام، دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت/ الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ.
٣٨ ـ القرشي: باقر شريف/ حياة الإمام زين العابدين، دار الكتاب الإسلامي ـ قم/ الطبعة الأولى ١٩٨٨م.
٣٩ ـ القرضاوي: الدكتور يوسف/ الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، مؤسسة الرسالة ـ بيروت/ الطبعة الثالثة ١٩٩٣م.
٤٠ ـ القزويني: حسن مرتضى/ الرسول الأكرم مدرسة الأخلاق، دار البيان العربي ـ بيروت/ الطبعة الأولى ١٩٩١م.
٤١ ـ القمي: الشيخ عباس/ مفاتيح الجنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت/ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
٤٢ ـ الكليني: محمد بن يعقوب/ الأصول من الكافي، دار الأضواء ـ بيروت/ الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٤٣ـ المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء ـ بيروت/ الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
٤٤ـ مجموعة من المتخصصين: موسوعة نضرة النعيم، دار الوسيلة ـ جدة/ الطبعة الأولى ١٩٩٨م.
٤٥ـ مختاري: الشيخ رضى/ سيماء الصالحين/ ترجمة الشيخ حسين الكوراني/ دار البلاغة ـ بيروت ١٩٩٢م.
٤٦ـ المطهري: مرتضى/ العدل الإلهي، مؤسسة الوفاء ـ بيروت/ الطبعة الثانية ١٩٨٤م.
٤٧ـ مغنية: محمد جواد/ في ظلال نهج البلاغة، دار العلم للملايين ـ بيروت/ الطبعة الثالثة ١٩٧٩م
٤٨ـ الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ـ الرياض/ الطبعة الثانية ١٤١٩هـ.
٤٩ـ الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة، المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة ،مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم/ ١٤٠٦هـ.
٥٠ـ ميل: روجيه/ المواقف الأخلاقية ترجمة الدكتور عادل العوّا، منشورات عويدات ـ بيروت ـ باريس/.الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
٥١ـ النمر: اسعد/ في سيكولوجية العدوان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع/ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
٥٢ـ النوري: ميرزا حسين/ مستدرك الوسائل، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لاحياء التراث/ الطبعة الثالثة ١٤١١هـ.
٥٣ـ الهندي: علي المتقي/ كنز العمال ،مؤسسة الرسالة/ الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ.



الشيخ

حسن بن موسى بن الشيخ رضي الصفار

- ولد في مدينة القطيف من المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية سنة 1377 هـ ، 1957 م.
- درس العلوم الشرعية في النجف – العراق، وقم – إيران.
- صدر له أكثر من أربعين كتاباً منها:
  - التعددية والحرية في الإسلام.
  - التنوع والتعايش، بحث في تأصيل الوحدة الاجتماعية والوطنية.
  - علماء الدين ، قراءة في الأدوار والمهام.
  - معرفة النفس.
  - كيف نقهر الخوف.
  - الوطن والمواطنة الحقوق والواجبات.
  - أحاديث في الدين والثقافة والاجتماع (جزءان)
  - التطلع للوحدة.
  - العمل والفاعلية طريق التقدم.

- يمكن مراسلته على العنوان التالي:
  المملكة العربية السعودية / القطيف
  ص.ب – 1322 الرمز البريدي 31911
- الموقع على الانترنت:
  www.saffar.org
- البريد الإلكتروني:
  saffar@safaar.org

عن الكتاب

إن مستوى العلاقات داخل أي مجتمع من المجتمعات ليس مسألة كمالية جانبية، بل هي عنصر أساسي في تقرير وضع المجتمع، وتحديد مكانته، وحركة مساره، فإذا كانت شبكة العلاقات الاجتماعية سليمة صحيحة، كان المجتمع مهيأ للتقدم والانطلاق، وعندما تسوء حالة العلاقات داخل المجتمع فستنعكس على مجمل أوضاعه تخلفاً وانحطاطاً.

لذلك فان أي حركة نهوض لا يمكن أن تغفل شأن العلاقات الاجتماعية، فهي أرضية الانطلاق ومحفز الإنتاجية والتقدم.

ومجتمعاتنا اليوم وهي تتطلع للنهوض والتقدم في حاجة ماسة للاهتمام بإصلاح شبكة علاقاتها الاجتماعية، بعدما أصابها الكثير من العوارض مع تطورات الحياة المعاصرة.

إن سلامة العلاقات الداخلية تنعكس ايجابياً على مختلف جوانب حياة المجتمع، فحركة المعرفة والفكر تتقدم في ظل أجواء الحرية والتسامح واخلاقيات الحوار واحترام الرأي. والنشاط الاقتصادي يترعرع وينمو على أرضية التعاون و تظافر القوى والقدرات. ومكانة المجتمع تتعزز في أنظار الاخرين حينما يكون أكثر تماسكاً وانسجاماً. والحالة النفسية لأبناء المجتمع تكون أبعد عن الأزمات والعقد والأمراض، حين تتقارب النفوس.

دار المحجة البيضاء

حارة حريك – شارع الشيخ راغب حرب – قرب نادي السلطان

ص.ب: 14/54791 – تلفون: 03/287179 – تلفاكس: 01/552847

تصميم: www.alghadeer.net